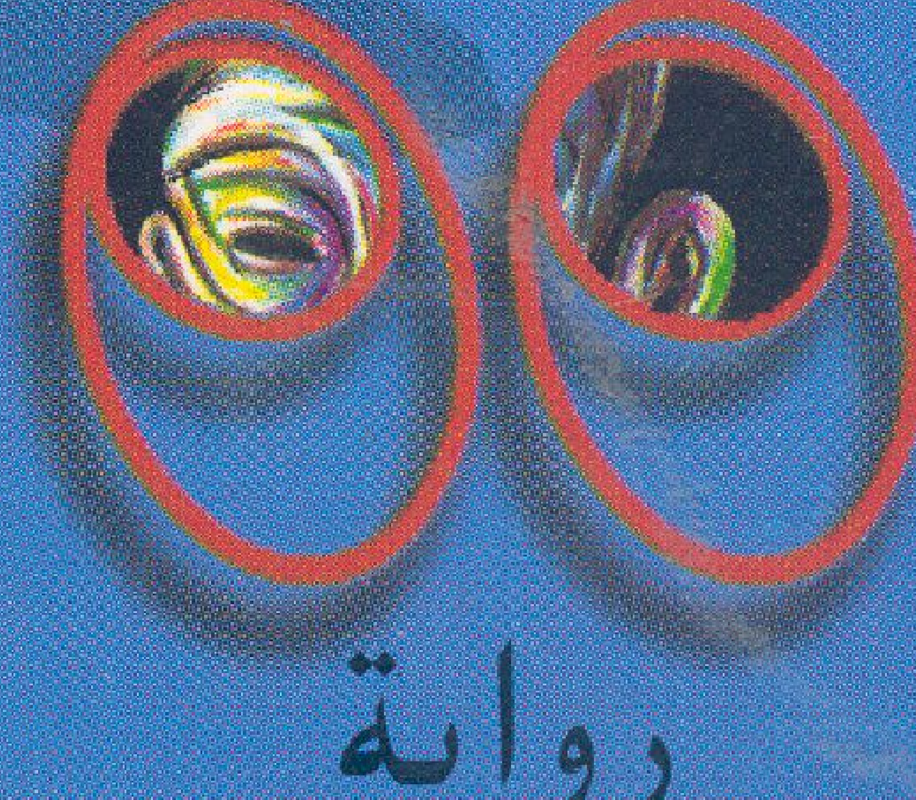




غيبوبة



تأليف **محمد العتر**

رواية

اهداءات ٢٠٠٤

المجلس الأعلى للثقافة
القاهرة

المجلس الأعلى للثقافة

روايــة

غيبوبــة

تأليف

محمد العتر



٢٠٠٠

١

قامت الدنيا ولم تقعد ، هاج الكل فى وجه عباس حسونة ، يحيطونه يمينًا ويسارًا ، للمرة الألف أو يزيد حاولوا منعه ، ربط حماره بجانب الباب المخصص لدخول المحافظ ، وللمرة الألف أو يزيد يقف عباس حسونة مندهشًا لهياجهم ، كأن محاولاتهم لإقصائه ربط الحمار - المحاولة الأولى هو يعرف أنهم سيتكاتلون عليه كما أنه يعرف كيف يرد عليهم ككل المرات السابقة .

- هو أنا بس اللى واقف ، ما فيه ميت عربية واقفة ، لا حد هاج ولا الدنيا قامت لهم ، هو مش كلها وسائل نقل ، ولا لازم العربية ؟ . . وإذا كان الحمار الدنيا بتقوم له وما تعقدش ، يبقى الحمار أحسن .

- إنت بتشبه الحمار بالسيارة يا « حيوان » .

أول مرة عباس يرى فيها رجل للأمن .

إياك ح تشبه نفسك كمان زى اللى راكب العربية . . فك حمارك وخلى يومك يفوت .

تضاعفت دهشة عباس وهو يسمع زجر هذا الرجل الذى يراه لأول مرة ، سلط بصره على أى شيء حتى نفسه .

- يا ترى كل اللى قولته ده لعباس . . مش أعرف الأول إنت . . مين ؟ ؟

أنا جيت كتير وأول مرة أشوفك . . !!

- أنا بقى آخر مرة ح شوفك . . لأنك آخر . . .

- لا أول ولا آخر . . . حضرتك مين ؟ !

- أنا مسئول الأمن الجديد . . !!

٢

انطلق نفير البروجى مـدويًا ، يعلن عن حضور المحافظ وتأهب الكل لاستقباله .

– الراجل لسه مـا بعدش بالحمـار ؛ لسه الحـمار على مرمى البـصر للمحافظ ، يعنى لو التـفت بعينه وشاف الحمار ، تبقى القـصيدة من أولها كفر ، ويبقى مسئول الأمن غير صالح للأمن . . !!

هذا ما أسر الرجل به لنفسه .

أول ما دخل المحافظ صافح عبـاس بحرارة ، وقبل أن يسأل عن شىء سأل عن الحمار ، اختلط ارتعاش مسئول الأمن ما بين خوفه من الجزاء إذا رأى المحافظ الحـمار ، وبين ما شـاهد من عناق بين المحافظ وعـباس . . . عاد رجل الأمن يحدث نفسه :

– يعنى لو القصـيدة مش كفر بـسبب الحمار ، فـالقصيدة كـفر لأنى شتمت عباس !!

رأى عباس المحافظ وهو يخرج من سيارته ، فتخيل لو أنه هو الخارج منها ، وأن المحافظ هو الذى ينزل من فوق الحمار ، لم يكن يهابه من قبل ، من أيام الخندق والدشمـة وطلقات الاستطلاع ، ولم يخطر ببـاله أنه سوف يكون محافظًا ، لم يخطر بباله أنه سيكون له فى هذه الدنيا مكان . . !!

– «وهو مين فكر مرة فى دى الساعة ، أو فكر إن أصحابه ممكن يبقى لهم عمر ، والموت عـلى طول كان مسابقهم ، لو أعـد اللى الواحد دفنهم بإيديه أو فات عليهم وغمض عنيه لأنه مش لاحق يدفنهم . . !!

- بيقوله فين الحمار يا عباس ؟ . وأنا اللى لسه بقوله فك الحمار ده يا حيوان ، ويقوله أنا آخر مرة ح شوفك فيها .

طابور أصحاب الشكاوى اليومى اصطف كالعادة ، وأطول عشرة أفراد زيادة ، فأمس لم يكن المحافظ مزاجه على ما يرام وكثيراً ما يكون مزاجه على غير ما يرام . . فلم يقابل أحداً من الشاكين ، أما إن كان معدول المزاج كاليوم ، يقف ويسمع للبعض أو للكل ، وفى حضور حسونة ؛ فمن العسير مقابلة أحد ؛ لأنه سوف يقضى اليوم كله بجوار المحافظ ، ومن كثرة تردد الناس وحضورهم أصبحوا يعرفون أن هذا هو التقليد المتبع من قبل المحافظ . لكن هناك رجلاً غير قادر على التحمل أو الانتظار ، وليس فى استطاعته الحضور مرة أخرى خصوصًا وأنه وجه جديد أول مرة يقف فى الصف ، ولو أن المحافظ قابل أحدًا من الناس لكان الرجل أولهم رغم حاجة الجميع لمقابلته ومعرفتهم أن حضوره متأخر عنهم ، لكن حاله جعلهم يقدمونه عليهم .

- أمال حمارك فين ؟ - يا عباس ؟

وعباس حسونة كأنه لم يسمع المحافظ وهو يسأل عن الحمار ، يصوب بصره تجاه الصف الطويل الواقف ينتظر ثم يعود لينظر إلى مسئول الأمن . . وهو سعيد بسؤال المحافظ بينما المحافظ يلعن اليوم الذى عرف فيه عباس وكيف تعرف على هذه الأشكال ، وهو متشاغل عنه داخل وخارج المكان ، مرة على النقوش المرسومة بالنظر فوق الحوائط ، وأخرى على السقف أشار لمسئول الأمن إلى التراب المتراكم على الحوائط وخيوط العنكبوت اللاصقة والمعلقة بالسقف ، ومسئول الأمن يتحرك بجسده دون أن يتحرك من مكانه ، متخشبًا فى ذهول ، فعباس يقف جنبًا إلى جانب المحافظ ، رأسه برأسه أيضًا ، والمحافظ يسأل عن الحمار ، يتفكه مع عباس تارة ، ويتلون وجهه تارة أخرى ويقول .

- إذا لم أشاهد الحمار كأنى لم أشاهدك ، يعنى وجود الحمار هو الإعلان عن وجودك ، ثم يشير إلى مسئول الأمن .

- شوف التراب والعنكبوت .

. . . .

كانت الشمس قد بدأت تنشر أشعتها على الكون . . وكلما افترشت الحوائط كشفت بنورها ما عليها من أتربة ، وما احتضنته السقوف من عنكبوت .

فرح الناس والمحافظ يتجه ناحية الطابور ، لم يكن فرحهم لأنه سينظر فى شكواهم بقدر فرحتهم لأنه سينظر فى شكوى الرجل الواقف فى أول الطابور يكاد يقع لعدم قدرته على الوقوف .

أخذ المحافظ من الرجل شكواه ، وانطلق على السلم كعادته ، هو هكذا . . إذ لم يكن فى نيته أن يقابلهم ، وهو ينطلق كالسهم فى قفزتين ليصل إلى مكتبه ووراءه عباس .

ثم تبدأ المقاومة حيث مسئول الأمن وأعوانه ، يطاردون بقية الطابور كمطاردتهم لحمار عباس ، والناس مصرون على الانتظار حتى وقت انصراف المحافظ ، بل ويفترشون الأرصفة البعيدة عن المبنى ، كل يشكو حاله للآخر ، أما عباس فهو الآن جالس على المقعد المجاور لمكتب المحافظ وأمامه الشاى والقهوة ، وسكرتير المحافظ يذوب غيظًا من هذا التقليد الجديد الذى استنه المحافظ وما كان لعباس أن ينال هذه النعمة قبل حضور المحافظ الجديد ، وما كان يجرؤ على الاقتراب من مكتب السكرتير قبل قدوم هذا المحافظ ، لو دخل المحافظ دون أن يقول لىّ عبارته المعتادة .

- سيبه يدخل .

لكنت حرمت عباس من الدخول حتى فى شارع المحافظة ، لو أعرف إيه اللى لم الشامى على المغربى ، المحافظ من آخر الدنيا وعباس لم يترك قريته طيلة عمره إلا لحضوره إلى المحافظة والشىء المحير اهتمام المحافظ الواضح بعباس ، ربما يكونون أقارب من بعيد أو من قريب ، هو يهتم به ، وأنا أفتح الباب لعباس بيه ، مثلما أفعل للمحافظ - أفعل لعباس . . . «هذا زمن . . عباس حسونة . . !!» .

٣

أثارت علاقة عباس حسونة بالمحافظ علامات التعجب ، وكان أكثر المتعجبين مسئول الأمن بعدما شاهد الاهتمام الزائد وعايش طول الحديث ، وسؤال المحافظ أكثر من مرة عن الحمار ، إنه لا يعرف حضور عباس إلا بوجود الحمار ، قرأ المحافظ أقل من سطرين من الشكوى ودون الرد عليها ، ترك الكل وانطلق إلى مكتبه ، فاختلطت أصوات الناس المستغيثة بأصواتهم الغاضبة على الحرس الذين يحاول طردهم من أمام المدخل ، ومسئول الأمن مازال فى تعجبه وانشغاله ، هل سيبقى فى عمله أم ستصيبه لعنة عباس حسونة ؟ !!

انصرف الكل وهدأ المكان ، وبقيت الشمس ترسل أشعتها من بين السحب المرتفعة فوق النيل ، وتهز الرياح الباردة أغصان الأشجار الجافة والعارية برغم أنها قد غرست لتزين المكان .

٤

مع بزوغ الضوء وإعلان الصباح عن وجوده ، تتوضأ قوارب الصيد بماء النيل ، وتنفض ندى الليل الذى تساقط عليها وهى تنتظر قدوم أصحابها ؛

ليبدؤا عـمل اليوم الجديد ، تتناغم الأصوات بدقات كعـوب الصيادين على أسطح قواربهم لتجذب أسراب الأسماك نحـو شباكهم ، تصاعدت الأصوات من ضريح سيـدى على الصياد ، ومع سطوع الشمس وارتفـاع حرارتها ، وتمنى الناس أن يكون المحافظ على موعد خارج مبنى المحافظة ، فيلتفون به لحظة خروجه ، كرشِه لنفس الرجل المريض الذى أوقفوه فى أول الطابور .

أسندت سـيدة رأسـه على الشجـرة التى تبقى على غـصونهـا بعض الأوراق ، علها تحـمى رأسه من حـرارة الشمس ، وجلست بجـواره تهون عليه طول الانتظار فهى من المترددين كثيراً وتعرف أنه سينتظر كثيراً .

«لو كان العدوى موجود ماكنش الواحد إترمى الرمية دى»

– العدوى مين ؟

– العدوى واحد من اللـى أكلوا قلب الديب ، هو من بلدنا . . ياما سرق واغتصب ، مافيش يوم عدا إلا وصاب واحد من البلد بأذاه ، وعمره ما أخذ حكم ولو يوم واحـد ، كان يحرق الأرض وهو قاعد مع صاحـبها على المقهى ، وصاحبها هو أول الشهود إنه كان قاعد معاه .

كانت الحكومة دايمًا تقول . . الواحـد احتار فى هذا العدوى ، وأهل البلد احتاروا فى أمره ، إزاى بينفذ أعماله بإيده وهو معاهم على القهوة !!

لو موجود وجه يقابل المحافظ وركنه ركنتى دى ممكن يخطفه ، ولا أحد يعرف له طريق . . لا حرسه ولا أهله .

– لماذا ينادى مسئـول الأمن على الرجل المريض ؟ ترى من يذكر هذا المريض ، مادام عباس مع المحافظ اليوم ، لن يرى أحداً ولن يقابله أحداً .

أقـبل مسـئـول الأمن فى زهو يقلب مـا بين يديه . . بينمـا جمـوع المنتظرين تنظر إليه متحفزة فى ترقب حتى بادر الرجل قائلاً . .

- المحافظ أرسلك إلى المستشفى ، خذ طلبك واذهب وبقية الناس تمر علينا غداً ، لأن اليوم أصبح يوماً لعباس وحده ، بينما كان المحافظ مستغرقاً فى قراءة بعض المذكرات المرصوصة فوق مكتبه ، كان عباس يطوف بالمكتب عائداً بذاكرته إلى الأيام البعيدة .

«اليوم هناك أطول من اليوم هنا بسنين ، الواحد ممكن يغمض ويفتح اليوم يفوت ، أما هناك الواحد طول اليوم يبحث عن شيء لإسكات صرخات الجوع واكتئاب الانتظار وسيل الأفكار الوافدة على الرأس من كل مكان ، والحلم الواصل ما بين أمنيات الانتهاء والهجرة إلى البعيد ، أو الهرب بالذات والانشغال بها مع برودة الليل .

* * *

ارتفعت دقات الدفوف القادمة من الضفة الثانية ، فاليوم هو يوم الشيخ «على الصياد» ، كل يوم أربع يتجمع الناس من الصباح من كل أنحاء المحافظة ، بل من كل أنحاء الدنيا حول الضريح ، وتختلط شدة بياض الشمس بملابسهم البيضاء فيشتعل بياض النهار ، ويحول مياه النيل الزرقاء إلى نهر من الفضة .

كان إذا وقف المحافظ فى حجرة مكتبه ونظر من شيشه خيل إليه أنه على ضفتى القناة ، المنظر أشبه بكثير ، وكأن النيل هو مجرى القناة والضفة التى بها مكتبه تقابلها الضفة التى بها ضريح الشيخ على الصياد ، وصوت الدفوف وقرع الطبول من الأشياء التى تهيج المحافظ وتعيد إلى ذهنه أيام الحرب ينظر إلى الضفتين ويسمع الأصوات ، تثور ثورته ، ومن يقدر أن يسكت هذه الأصوات ، ولكم فكر أكثر من مرة أن ينقل مكتبه بعيداً عن هذه اللوحة الجميلة ، ولولا أنها عالقة فى ذهنه بالحرب لما حاول إن كان يتذوق الجمال الابتعاد عنها حتى تناغم كعوب الصيادين واصطفاف

الناس على طول النيل تستمتع بمشـاهدة المناظر الجميلة وتطرب لهذا التناغم المنضبط وتزيد قلقه وتوقفـه للمطالبة بوقف هذه الأصوات وإبعاد الناس عن المكان والصيادين بقواربهم إلى الأمام .

عرف السكرتير من خلال دخوله وخروجه المتلاحق السبب وراء طلب المحافظ رفع الساعة المعلقة على الحائط والمواجهـة له ، وهو يذكر عباس بالليالى المظلمة التى لم ير فيها أى ضـوء إلا من خلال عقرب الساعة الفـسفورى ، ومدى السواد الدامس الذى ظل يمتطى صـهوة أكتافـه ، والنظرة الولهى التى بترق فى عينيه ، متحسسًا ، وهو يحنى ظهره منبطحًا على مكتبه ، ليخفى حزنه .

٥

المستشـفى طلبت من المريض الموافقة الصريحة من المحـافظ حتى تقوم بعمل الغـسيل الكلوى بالمجـان ، رجع المريض يجلس تحت نفس الشـجرة . . . . يا عدوى !!

« ما هو لو كان عايش . . كان سمع » .

لما فكر الـعـدوى فى الزواج من الأرملـة فى نفس السنة الـلى مـات جوزها فيـها ، وترك لها ثروة كبيرة ، كـانت سمعته سبـقاه ، وعارف إنه مش ممكن الزواج منها فكر واستخدم عقله ، وأجـر مجموعة من اللصوص لسرقة الأرملة ، واتفق معهم على موعـد محدد ، وحسب الاتفاق كان هو المنقذ الذى أرسله الله لإنقاذ الأرمـلة من اللصوص ، وده كان المدخل اللى ساعده ذكاؤه عليـه ، وأقنع به الأرملة . . ، إنه هو الوحيد الذى يمكن أن يحميـها ، ولم يمض على الزواج أكثر من أشهـر قليلة ، وماتت الأرملة ، ويعلم الله إن كانت ماتت بالسكتة القلبية أم بالسكتة العدوية !!

ما هو ياما ماتت ناس بالسكتة العدوية داخل البلد وخارجها ، الناس يوم موت العدوى تبادلوا التهانى وعلقوا الزينة ، وكان يوم عيد فى البلد ، كل واحد يقابل التانى يقول له .

- أنا مش مصدق إن العدوى مات . . !!

- ربك كبير . . الموت على رقاب العباد ، ولا واحد قال «الله يرحمه» ولا حد من أهله فكر ياخد عزاه إما خوف أو تنكر له .

أول مرة يتنصب له الفخ بإحكام ، ربما لأنه كان بيسرق الجامع ، مع إنه ياما سرق قبل كده جوامع ، وغير الجوامع ، يعنى مش أول مرة يسرق فيها الجامع ، إنما أهل البلد فاض بهم الكيل ، وعلى غير العادة ، فكروا وعلى غير العادة اتفقوا ، وعلى العادة اتحدوا إنهم يتخلصوا من العدوى ، واختفوا جماعات داخل الجامع وحوله ، وعند وصوله انقضوا عليه ، والكثرة فى هذه المرة ، هى التى غلبت ، كتفوه ووضعوا رأسه مطرح رجليه ، وظل معلقًا وصرخاته تحملها مياه النيل ، وتنقلها إلى البر الثانى . . فتجتمع الناس ، ولم يجرؤ أحد من أهله أو من أهل البلد - الاقتراب منه إلى أن مات .

مات عطشان ، لأنه ظل يطلب يشرب إلى أن سكت ، وكان السكوت الأخير . . !! حتى الحكومة باركت موته ، وقيدت القضية ضد مجهول ، أصلها لو حققت فى - من قتله . . ، عليها أن تحقق مع البلد كلها نساءً ورجالاً حتى الأطفال . . كانوا يتفرجون عليه وهو معلق ، وإذا تساءل أحدهم تطوع الكثير من أهل البلد لشرح الأسباب ، أما الحكومة قالت (بركة يا جامع) . . وكأن العدوى لم يكن . . فى يوم . . وليلة . . !!

٦

مازال برغم السنوات المتراكمة ، وحجم التجاعيد التى لا تفارق وجهه بسبب عدم ابتسامته يحرص على الوقوف أمام المرآة ،قبل دخول مكتبه بعدما طلب إعداد دورة المياه الملحقة به ، وطلب أن يوضع بها مجموعة من العطور المستوردة وفى كل مرة قبل أن يدخل المكتب يتزين ويضع العطور ، ثم يبدأ فى قتل الوقت ، لا يفعل شيئًا سوى الجلوس على مكتبه ، وكأنه يعيش فى حالة انتظار مستمرة . . !!

ومريض الفشل الكلوى مازال تائهًا بين المستشفى وموافقة المحافظ الصريحة على غسيل الكلى بالمجان .

مازال يجلس تحت الشجرة التى تتساقط أوراقها عليه ، وهو يهشها كأنه يهش الساعات المتبقية من عمره ، ورجل الأمن يسأله عن سبب مجيئه مرة ثانية ، يهش المريض بيديه الأوراق المتساقطة من الشجرة ، ومسئول الأمن يعيد عليه السؤال ، وهو يهش دون أن ينتبه إليه ، وأوراق الشجرة تتساقط ، ويتساقط هو ورقة بورقة .

٧

لما عرف عباس حسونة أن المحافظ ناقش مع مرءوسيه إمكانية هدم الضريح ، سارع وجاء ليؤكد على أنه إذا تم ذلك سيكون فيه خطر عليه ، وعلى حياته أكبر مما صادفه أيام دوريات الاستطلاع ، وقال له إنه فى الخمسينات . . روى الرواة أن أحد المسئولين الكبار . . فكر فى هدم الضريح ، وأصدر قراره بذلك ، وفى نفس الليلة ، نام المسئول الكبير ولم يقم .

ولما تم الكشف عليه قال الطبيب أن سـبب الوفاة «اسفكسيا الخنق» ، وكـان المشـول يسكن فى نفس السكن اللى إنـت فيـه الآن ، قبل هدمـه وإعادته ، وقال الرواة : إن الذى خنقه هو سـيدى «على الصياد» ، وبلغت الإشاعة مداها ، وانتشرت فى كل أرجاء المدينة .

ومن هذا اليوم بدلاً من أن يهدموا الضريح .. أقاموا حوله هذا المقام ، وقال إن سـبب توافد الناس والتفافـهم حول الضريح يوم الأربعـاء أيضًا ، فاختار أهل القرية مع مريدى سيدى «على الصياد» هذا اليوم لتقام حلقات الذكر والعبادة إرضاءً له ؛ حتى المولد حـددوا له يوم الأربعاء بعد أن ينتهى مولد أبو المعاطى وإن انتهت الليلة الكبيرة لمولد «أبو المعاطى» فى غير يوم الأربعاء .

يجتمع الكل ليختاروا موقعهم انتظاراً حتى يحصل عليهم يوم الأربعاء ، ويبدأ مـولد سيدى «على الصيـاد» اللى إنت عايز تهدمـه الآن .. ، وقال الرواة . . .

أن «على الصياد» و «أبا المعاطى» قد جاءا معًا ، وكانا من الذين قاموا بمعاونة أهـل دمياط على مـواجهـة الحملة الصليـبيـة ، وأظهرا الكثـير من الكرامات ، مما جعل توراث الاهتمام بهما دفينًا فى نفوس الناس ، وأظنك شايف أد إيه الأعداد الملتفة حول الضريح ، ودول مش أهالى البلد وبس ، دول من بلاد كـثير . . . ، زى الأعـرج – ممكن بعـد عام أو أكثـر أو أقل . . . ، يقول عنه الرواة . . . ، أنه صـاحب كرامات ويقام له مـقام وتأتى الناس من كل مكان ، وعرفين من هو سيدى الأعرج ، ويطلق عليه سيدى الأعرج ، وأنا وإنت اللى دفنينه ، لكن اللى عمله وقدمه ، لو قيل وتبادله الناس ، وعـاش ممكن يأتى اليوم اللـى يرووه على أنه كرامـات ، ويلتفـوا حوله وتجاوره الدراويش وتقام له الموالد والزينات وحلـقات الذكر .. وغير ذلك فى الموالد . . . اللى يعيش هذه السنوات فى قلـب الصحراء ، يدعى

العرج والخرس ، ويتعايش مع الأعداء ، وقام ليجمع كل هذه المعلومات ، وينقلها إلينا بهذه الدقة ، وبدون أى خـوف حتى أنت فى كل طلعة تحسده ، ففى كل طلعة لم يتغيب أو يدلى بمعلومة غير صحيحة ، دون أن تعرف من هو أكثر من أنه هارب من حكم ، وحتى هذا لم يخـفيه عنا طبعًا ، إنت وأنا وكل اللى كـانوا مـعنا ، لم تنس أبدًا الأعـرج . . . ، اللى لما اتيـحت له فرصة الهرب ، فكر فى أن يكون هروبه لشيء يفـيد البلد ، ويبقى لو مات يجد من يترحم عليه ؛ لأنه عمل شيـئًا فى حياته ، يستحق مش الترحم . . ، يستحق يكون سيدى «على الصياد» تانى . . ،

هرب إلى الضفة الثانية وهو يعلم أنه لو انكشف أمره سواء عند العدو أو عندنا ، ستفـرغ فيه طلقاتهـا ، وتتناثر أشلاؤه ، ورغم ذلك لم يهب ، ولم ينقطع عن جمع المعلومات ، حتى بعدما عرف إنك أبلغت عنه القيادة ، وأنه من الممكن فى أحد الاسـتطلاعات يتم القبض عليـه ، ولم يتوقف أو يهرب حـتى بعدما انكشف أمـره عند الأعداء ، يومهـا فقط اختـفى حتى موعد الاستطلاع ، وظهر ليطلب كمية كبيرة من المفرقعات ، وأعلن لنا أن أمره انكشـف ، وأنه لابد من عمل شىء قـبل موته ، كان يعلـم أنه ميت ميت . . !!

وانتظر حـتى جـاءته المفـرقـعات ، لم يـطلب أى طلب إلا أن يدفن بأيدينا ، ولا يجمع أشلاءه إلا أولاد بلده ، وظل مـجهول الاسم ، ونحن نجمع أشلاءه . . كانت الذراع التى نقش عليها اسمه متناثرة بعيدًا عن الموقع الذى فجر فيـه نفسه . ولما حصلنا عليه ؛ تأكد الـكل أنها ذراعه من خلال الاسم ، وعرفت أن اسمه «عابد المحلاوى» ، أليست هذه كرامات ممكن أن تروى على مدار الزمن ويصـبح «عابد المحلاوى» من الأوليـاء الصالحين ، وتأتى إليه الخلايق من كل أنحاء الدنيا ، ويقـول له شا الله يا سيدى الأعرج ، بركاتك يا سيدى الأعرج ، خذ بإيدى ، وتوضع الشموع على شباكه وضريحه .

٨

كانت البنات ينتظرن حتى يخرطهن الخراط ، فيذهبن للاستحمام عنده ، وهن يحطن أجسادهن بحزام العفة ، حيث يذهبن فى الصباح الباكر غير عابئات بمن يشاهدن وهن عاريات ؛ ظنًا منهن أنهن فى حمى سيدى على الصياد يسدل عليهن بدلاً من أثوابهن أستاراً تحول بين أجسادهن البكر العاريات وبين الأعين المتلصصة ، فهذا ماتوارثنهن جيلاً بعد جيل ، إذ يجب أن يتباركن بلمس الضريح وإلقاء السلام ، وإن غرقت بنت وهى تستحم فهى غير عفيفة ، ولا يقام لها عزاء ، لأن صاحب الضريح رفض سلامها ، وتصبح حديث الناس ، والكل حسب هواه ، يطلق عليها ما يشاء من شائعات .

٩

السيقان البيضاء اللامعة أثارت فى عينيه الرغبة ، لتبث كآبة وجهه فى عينيها غير عابىء بالواقفين حوله ، تركت شكواها ، وفرت هاربة من أمامه إلى الشارع الذى حولته الأمطار إلى بركة ماء موحلة ، اختلط الضباب الملبد بالجو بكآبة وجهه ليتفرق دم الشمس بين قبائل الأفق ، وطيور النورس تلاعب وجه النيل ، وشهقات «طاهر الخضرى» تعلو مستغيثة ، فهو مريض الكلى الذى ينتظر موافقة المحافظ الصريحة لتعمل له المستشفى غسيل الكلى بالمجان ، ولما كان «طاهر الخضرى» من الحرفيين الذين عشقوا حرفتهم وأخلصوا لها ، وانحسرت حياتهم فيها ، عاش يعطى لها صحته ويأخذ منها قوت يومه ، وقوت أولاده ، لم تشغله نحافته حتى اكتشف تضخم وجهه وانتفاخ بطنه واسوداد جفونه واصفرار عينيه ، ولولا ستر ربنا عليه إنه كان يدخر من قوت يومه بعض القليل الذى حاول به علاج نفسه ،

وتصور فى بادىء الأمر أنه شىء هين ، ثم عرف أن الموضوع شرحه يطول ، وشيئًا فشيئًا أقعده المرض عن العمل ، وفقد القدرة على الحصول على قوت يومه وقوت أولاده ، أخيرًا نجح «صابر العايد» مسئول الأمن بعدما تسلل إلى قلب «عباس حسونة» فى الحصول على موافقة المحافظ الصريحة ، لما رأى الرجل يزداد ذبولاً وضعفًا فى الجسد وشحوبًا فى الوجه ، أبلغ مسئول الأمن المحافظ بما وصلت إليه حالة المريض ، وقد ارتسمت على وجهه ملامح الأسى ؛ بعدما راح طاهر الخضرى فى غيبوبة ، وتعذر عمل الغسيل اللازم ؛ لأنه يحتضر ، ولم تعد هناك فائدة من الغسيل .

فقال المحافظ :

- إيه يعنى . . إحنا بنحكم على الواحد بالإعدام وبيكون سليم ومش مريض .

١٠

بحكم منصبه كرئيس للإقليم ، كان على رأس المدعوين لحضور المؤتمر العلمى الذى تنظمه إحدى المنظمات فى كل عام ، وفى نفس الميعاد . وعندما اعتلى المنصة ، وقدم ليلقى كلمته بصفته الوظيفية والسياسية ، وإنه الملم بكل ما يجب أن يطرح ، بلغت شهوة الحديث ذروتها ، وجعل من حبل الحكايات ضفيرة تتدلى من رأس أفكاره وتنساب على ظهره مشعلاً سجائره وهو يتقافز كأنه راقص ، واصلاً الحكاية بالأخرى دون ترتيب أو ترابط ، حتى أن الحاضرين تململوا ، يريدون الهرب ، ولا يقدرون ، فهم لا يفهمون ما يقول ، وهو يخرج من موضوع إلى موضوع يدافع مرة ، ويتهم مرة أخرى ، متصورًا أنه يعتلى منصة قضائية ، مع أن المؤتمر كان لتكريم أحد رجال العلم والأدب ، ولا علاقة كما يقول بما هو فيه الآن .

ظل هكذا حتى أن المنصة كادت تنفرط ، ولا يبقى عليها إلا هو وحده . . ولما تساءل البعض . . لماذا لم تكتب له رؤس المواضيع حتى يعرف أين هو إذا شطح بأفكاره .

قالوا . . أنه يدعى العلم والمعرفة بكل شيء .

11

ازدحمت الشوارع أول الليل بالناس المسرعين إلى ساحة المولد ، يتقدمهم الموكب الممتد والمزدان براكبى الخيول من الشيوخ الأجلاء بملابسهم الفخمة وعمائمهم البيضاء تزفهم الآلات والمشاعل تتراقص فيها ألسنة اللهب حتى وصولهم إلى الساحة المعدة لاستقبالهم بجوار المقام والذى تموج بالقادمين من كل مكان ، فاليوم مولد سيدى على الصياد ، اختلطت الأصوات بصهيل الخيول ، واصطفت الجمال الجاثمة والواقفة فى ود وصداقة كأنهم يحتفلون مثلما يحتفل البشر بالمولد الذى ينتظرونه من العام للعام .

جلس الجميع على الحصير المفروش بأرضية الساحة فى انتظار بدء حلقات الذكر ، تداعبهم النسمات الآتية من النيل ، كأن الشيخ الذى سيقود حلقات الذكر قد توضأ وصلى بهم ، وتناول طعامه وتسربت إلى أوصاله راحة ، كان فى شوق إليها من عناء التعب ، الذى حل عليه بعد هذا السفر الطويل ، الذى أتى منه ، فهو متعود كل عام ، فى نفس الميعاد يأتى ، ويقول . . نادانى على الصياد ، وقبل أن ينعم الشيخ براحته . . كانت سيارة الشرطة فى قلب الساحة ، لم ينتبه أحد ، الكل فى هيامه ، منجذب نحو المقام ، نزل أحد رجالها ، وبطريقة مهذبة طلب منهم عدم استعمال مكبر الصوت من السيارة .

الرجل من أبناء البلد ، ويعرف قـدر سيدى على الصيـاد ويقدر سعى الناس إليه من كل مكان .

وربما لولا زيه الرسمى الذى يرتديـه ، وخوفًا على النجمـات الثلاثة المرصوصـة على كتفيـه لكان مـن المشاركين ، كان الشيخ يتابع من مكانه ما يدور داخل الساحة ، ويتهيأ للقيـام حتى فوجىء ، تجمدت عيناه ونفسه لما رأى السيارات المحملة بالجنود تهرع إلى الساحة ويسوق الجند كل من فيها من رجال وأطفـال وشيوخ ، والكل يهـرول هربًا من العصى التى تلاحـقه حتى النساء اللاتى كن اتخذن جانبًا قصـيًا يفصلهن عن الرجال ، ويبعدهن عن الأعين المتلصصة ، لـم يسلمن من أيدى الشـرطة ، وفى غمضة عين ، سحبت الخـيول والجمال ، وتبعثـرت الأشياء تحت الأقدام حتى العـمامات البيـضاء التى سقطت من على رءوس الشيـوخ الأجلاء دهستهـا الأقدام ، فتلونت بلون الأرض ، أطفئت الأنوار ، وكسرت الكلوبات وكادت الساحة تتـحول إلى كـتلة من النيران لولا وجـودها على شـاطىء النيل ، لم يفكر أحد إلا فى كيف ينجو بنفسه ، كأن اليوم - يوم الحشر - الكل يجرى دون أن ينظر وراءه ، ودون أن يعرف إلى أين .

وأهل القرية الذين اكتظت بيوتهم بالغرباء ، كـأنهم على موعد ، فقد انحشر الاثنين من كل مكان داخل البيوت القليلة والمجاورة للمقام . لم تنم القرية ليلتها ، ولا القرى المجاورة وخلت جـميعها إلا من الجنود وسيارات الدورية التى ظلت حتى الصباح ، الكل مندهش ومبهوت لهذا الكابوس ، ومع خيوط الصباح الأولى تحولت الساحة إلى مأتم .

والشيخ يتابع من داخل المقام ، لم يترك الشـيخ مكانه ، وكلما غلبته دموعه استعاذ بالله وقام يصلى ، حتى رجـل الشرطة لم يترك المقام هو الآخر ، وكأنه بغير إعلان يحرس الشيخ ، وبالوداعة والتهـذيب اللذين طلب بهما عدم استعمال مكبر الصوت ، نظر إلى الشيخ وقال له : هذه أوامره ، لـم يترك الشيخ المقام ،

وبقى به حتى آخر يوم فى المولد ولما ظهرت جثث أفراد الشرطة الذين سقطوا أثناء مداهمتهم للساحة ، أظلم الشيخ المكان وقام بانتشالهم وغسلهم للصلاة عليهم قبل أن يغادر المقام ، كأنه فى انتظارهم وظل يردد (أهلك لا تهلك . . لم يبقى إلا السفر ، أهلك . . لا تهلك ، وإن آن الأوان للسفر !!) كان الرصاص قصاصًا ، جعل الجثث شبابيك تبص منها الحدادى .

- أهلك لا تهلك . . ، وباب يفتح الرأس أبواب .

- أهلك لا تهلك . . !! واقفة البنات يتلون الدنيا ، وتبص من فين جاى الحمام والكعب متحنى .

- أهلك لا تهلك . . عمر اللى كان مستتصر ، مين اللى يقدر عنى ، أنا غصب عنى يوم ما مات سبته وجريت ، وله جيت أخده شفت الحدادى بتنتفه تناتيف ، يفرش جناحه على الضريح ويحط ،

وأنا اللى مهما قعدت برضه نويت على السفر . . !!

١٢

آهته الصادرة منه ، كأنها صادرة من عمق الأحشاء ، تنم فى غير انتظار عن الأسى الغائر فى أعماقه يناقضه مايبدو عليه من الارتياح ، وعباس حسونة بجلبابه البنى وعمامته الملونة التى تشبه المنديل المحلاوى ذا اللونين الأحمر والأبيض يتلقف الآهات فى صمت عصبى ، ويخاف مواجهته بما فى داخله ، من ندم . وهو يراقب من مكانه البعيد الشيخ ، وهو يودع المقام ، ويلف حول الضريح فى حميمية ، كأن الثرى يودعه ، هزت التجربة نفس الشيخ وزلزلتها ، لكنه تمالك نفسه ، وأمسك جأشه واستعاد السيطرة على ثورته وعاد إليه ذهنه الذى غاب . . ،

توضأ من النيل وهو يقول :

- مهما ألم بك . . العود قريب . . قبل أن يميل ميزان النهار والعدل قريب . . قبل أن يميل ميزان العدل ؛

١٣

يخلو الفضاء إلا من بقايا الأمتعة المدهوسة والمغموسة فى التراب ، بعد أن انصرف الجنود بسياراتهم وخوذاتهم وعصيهم وتركوا المراجيح المنصوبة يطوحها الهواء ، والتردى والخوف المرسوم على الوجوه ، والمخبى بين زوايا العيون . . ، وتشفى البعض لما رأوا جثث الجند تطفو على وجه النيل ، لكن سرعان ما أسهموا فى انتشالها وشاركوا الشيخ فى تجهيزها للدفن .

كانت القرية تحتفل احتفالين ، احتفالاً بالمناسبة ، واحتفالاً بما يعود عليهم من كسب فى هذه المدة القصيرة نتيجة الأعداد الكثيرة ، التى تأتى من كل مكان أيام المولد ، كانت تعد عند المتتفعين بها بالشهور لأنها الأيام التى تأتى لهم بالخير على مدار العام ، كان الفضاء يصرخ ، ليست صرخة الميلاد ، إنما صرخة إندثار ولظى البوار ، وأيقن الجميع أن عامهم هذا عام الخراب ، وما بين الهمس والأصوات العالية ، تطن الأحرف وتشرب خوفها ، لكن رائحة الهواء الداخلة إلى الصدور جعلت من الصمت مسافة ، ما بين الإدراك والاستيعاب واختبار اليقظة من النوم ، كان الوقوف المكسور أمام المقام والغمز واللمز الدائر بين الواقفين والواصل عبر الهواء ، ترعشه رجفة التشوق المخبوء ، وانتظار القادم من الضفة المقابلة .

صابر العايد الحارس الخاص ومسئول أمنه يفتح صدره لعباس ؛ ليعرف عنه الكثير ، وعباس حسونة تنط من عينيه السعادة ؛ لأنه اقترب

كثيـراً من العايد وأصبح كالخاتم فى إصـبعه ، هو يقول أيضًا إنه اسـتحوذ على قلب وعقل صابر العـايد ، مسئول الأمن وأنه مستـفيد ، هو كل همه الاستفادة من صابر العايد ، يزيد من علاقته به برغم مابينه وبين المحافظ ، لكنه يعرف إزاى يميل للطوفان ، يفوت ويعدى وهو يعرف كمان أن المحافظ وظيفتـه غير دائمـة ، ويعـدد أسـماء المحافظين السابقين ، ويقـول أين هم الآن ، لقد ذهـبوا وبقيت وظيـفة مـسئـول الأمن دائمة حتـى ولو كان مسئول الأمن مجرد حارس خـصوصى ، لكنه عاود خطاوى المحافظ مهما ذهب .

ومسئول الأمن يعـزف على هذا الوتر ويزيد ، وكلما غاص فى داخله عرف الكثير .

كان يحكى عن أيام تجنيدهم وأنهما تلازما معًا طول مدة التجنيد والتى زادت على سبعة أعوام ، وأن عددهم خمسة عشر فردًا عاشوا معًا الانتظار ، وعـجز الإقـدام وحرمـان راحة البـال حتـى أصبح لهم دور وانتظمـوا فى دوريات استطلاعيـة على جزء من الجبهـة ، وأنه كلما خرج معـهم أصابته حالة ذعـر وانتابه نوبة قىء وتشنج فـلا يهدأ إلا إذا أخفـيناه خلف ساتر ، وكنا مهما تأخرنا فى المهمّة وجدناه كأنه . . . لم ينبش حوله .

يظل على هذه الحـال ، يخـتفى وراء السـاتر ، ونقـوم نحن بدوريتنا الاستطلاعية المكلفين بها ، ولأننا كنا فى جمـاعتنا كفرد واحد ، لم نحاول أن نشعـر أحدًا ، أنه لم يشارك مـعنا فى مهمـتنا الاستطلاعـية بل إنه عند عودتنا إلى مقـر فصيلتنا ، كنا نجعله دائمًا فى المقـدمة ، فتستقـبله الفصيلة قبل أن يستقبلونا بالترحاب ، ولم يكن له دور إلا منذ أن صادفنا الأعرج .

لم ينس يوم أن اختبأ بالقرب مـن الساتر الذى تعود أن يختبىء وراءه مطمئنًا كعادته وقمنا نحن بانتشارنا ، يومها ظهر الأعرج لأول مرة وصوب

سلاحـه في ظهره ، وظل حتى عودتنا وعـرفنا يومها بعـد أن اتعرفنا على الأعرج ، أنه يعيش منذ وقت طويل بين الأعداء ، على أنه أخرس وتصور أن وجوده خلف السـاتر هو كمين أعـد له بمعرفتي أن كـان أخرس أم لا ، وإن هذه المرة ليست المرة الأولى التى شاهده يرقد خلف الساتر . . .

عشان كده صوب سلاحه دون أن ينطق ولما عرف إنه مصرى من لغته ، ظل على عدم ثقته حتى رجعنا من المهمة ، وزى ما إنت شايف لون بشرته الشقـراء وشعـره الأصفر جـعل الأعرج يظن أنه من جـنود الأعداء ، ولـم ينطق الأعرج إلا لحظة حـضورنا ، ليعرفنا إنه مـصرى ، ومن هذا اليوم ، وبعـد أن أصـبحنـا نثق فى الأعـرج وهو يثق فـينا ، نقـوم إحنا بدورياتنا ويختـفى هو وراء السـاتر ينتظر الأعرج ليـحصل منه على المعلومـات التى أعدها ، ولكثرة ما قدمه لنا الأعرج من معلـومات تكاشفنا جميعًا بأسرارنا فعرفنا أنه من المطاردين الهاربين من السجن ؛ فانتهز الفرصة ؛ وأبلغ القيادة سرًا بوجود الأعرج الهارب ؛ لأنه لم ينس للأعرج لحظة الذعر التى عاشها بسببـه ، لكن القيادة أمرتـه أن يظل متعاونًا معه ليحصل من الأعداء على ما يفيدنا . . فوجود الأعرج حـرًا طليقًا بينهم أنفع للوطن من إيداعه السجن وتنفيـذ الأحكام الصادرة ضده وأصـبح الأعرج بين الأعداء عـينًا لهم حتى أحس أنه يمكن أن يعمل ماهو أهم من مجرد المعلومات لأنه على وشك أن ينكشف أمره لتعدد الهجمـات الناجحة على العدو ، يومها طلب أن يموت موتة غـير التى كان سـيموتها بالسـجن لأنه هرب من أجل ذلك ، وطلب المتفجرات التى فجر بها نفـسه داخل موقع من أكبر المواقع للعدو ، وكانت وصيته أن نحاول فى إحدى طلعاتنا تجميع أشلائه ، علنا نعرف من هو من خلالها ، والتـعرف على اسمه ، ظل الأعرج يتـعامل معنا لوقت طويل ، لم يقل لأحد على اسمه ، وبعد أن حـصلنا على ذراعه ، عرفنا أنه «عابد المحـلاوى» ، ويومهـا كـأننا نكافىء عـابد بسـقوط هذا الـعدد من أفـراد

المجموعة ولو كـان معنا فى هذا اليوم لسقط معهم لأنهم اسـتقبلونا بالقرب من المكان الذى كنا نتقـدم منه ، لكنه حصل على إجازة مكافـأة له على ما قدم من معلومـات ، ولما عاد كانت الجمـاعة المكونة من خمسة عـشر فرداً أصبحت خمسة أفـراد ، لكن الشيء الذى يتعجب منه أن العدد الباقى من الجمـاعة كانوا الأكـثر خوفـًا . . فالخوف يجـثم على صدورهم ، ويقـيد أرجلهم ، كأنهم يحملون أطنانًا من الرمـال التى يمكن أن تقيم لنا عشرات من السواتر التـى فى مواجهـتنا ، ومن المحير أن هؤلاء هم الـذين يحتلون الآن أرفع المناصب ، وتتصدر صورهـم الصحف ، وينعمون ببريق الأضواء فى بلد . (يصبغ أمام أعيننا باسم الانفـتاح) وهم الذين كانوا أيام المعارك الحقيقية المختبئين خلف السواتر لا تشغلهم هموم الوطن .

- ياه . . الواحد بيشاور وكأنه لسه على الجـبهة ، والحلم بيسبق بصة عينى على الضفة الثانية .

وصابر العايد يسمع لعباس حسونة ، كأنه يعيش الأحداث الواقفة أمامه .

١٤

يصيبك الخـوف إذا شاهدته وهو يدخن يملأ جوفه بالدخان ، يحـبسه داخله ثم يرفع رأسه إلى سقف المكتب ، ويخـرج مابه من دخان فى خيط متقطع حسب ما يفتح فمـه أو يغلقه ويظل يحملق فى سقف المكتب متنقلاً بعينيه كـأنه يبحث عن شيء ما ، يشير إلى مكان مافى فـراغ نفسه ، وبين الخيوط التى نسجها بدخان سيـجارته ، أدرك المتعاملون معه ألا يحاولوا أن يقطعوا عليه لحظة استغراقه التى يعيشها بكل طقوسها وغرائبها ، ولا نالهم ما نال مدير مكتـبه ، لقد سبق وقطع عليه هذه الحالة ، فكان نصـيبه النقل بعيداً عنه . وسكرتيره الخاص وقع فيـما وقع فيه المدير ، فنقل هو أيضًا ،

وما يعرف أى منـهما سبب نقله ، لأنه لم يخطر ببـال أحد أن يكون النقل بسبب الخروج من الحالة ، حتى أكثـر المخلصين له راحوا ضحية هذا التوتر ، لأنهم لايعرفـون أن الرجل غير ثابت على حاله إذ يسـتطيع أن يجعل الليل مـوصولاً ، وهو غـارق فى اللحظات وبين يديه سـجائره ، تـتبـعثـر منه الحكايات دون إعداد ودون رابط ، وكلما طلع صباح جديد ، انتظر الجميع من يكون ضحية هذا الصباح . . !!

وهذا التباين المزاجى الذى يعيشه ويخضع كل المتعاملين معه لحالاته المتباينة .

تتصاعد أبخرة الضجر ، كأنه فرس جامح لايقدر عليه أحد ولا يفهم أحد معنى محدداً لهذا الضجر .

بعدما يتناول قهوته وتغلق عليه كل الأبواب ، يجلس مـستمتعًا بوحدته ، شارداً كأنه يفكر فى أحـوال العالم البعيد ، أو وصل بالعالم إلى مـبتغاه ، ثم يطلب الخطابات اليومـية الخاصـة به والواردة من الوزارات إن وجدت ، والبوسـتة الروتينية التى تعود الجـميع على أنها إذا دخلت اليـوم تخرج من عنده بعد أسـابيع ، لأنه سرعان مـايصاب بالملل فى منتـصف النهار وأثناء طريقه للعودة ليقف دقائق أمام النيل ، يشاهد على البعد قوارب الصيد التى أمر بإبعادها وأصحابها ، لاينظرون إليه ، ويزيد انشغالهم بطرح شباكهم ، لأنهم تعبيراً منهم عن عدم رضـائهم وإنهم لا يسعدون برؤيته . . . بعد أن حرمهم أرزاقهم . .

وهو ينظر إلى الضفـة المقابلة ، وما أصابهـا من سكون إلا من وقوف الضريح شامخًـا ومعانداً لنظراته التى تتناثر لتفرش الضـفة كلها ، أما وقع أقـدام أهلها الطيـبين ، وهم يتناقلونهـا مشـقلة ، مـابين بيوتهم والضـريح وصمتهم القابع بصدورهم وشعورهم عدم القدرة أو الحيلة يجعلك تقرأ فى عينيه نشوة الانتصار .

١٥

أصيبت بغيبوبة ، بعدما أمر مديرى المواقع ألا يتخذوا قراراً إلا بعد الرجوع إليه . . كأن الصمم أطبق عليها من بطء الخطى وشحوب الضوء ، تحولت إلى طرقات ضيقة يملؤها ابتلال المطر ، تتمسح أشعة الشمس الآتية من الذبول ، تنتشر خيوطها ، فيبدو السطح الظاهر من الوجوه مشتعلاً بالاصفرار ، حتى للأشعة الذابلة تنسحب من فوق الجانب الآخر ، والكل يكفن لسانه خوفًا من أن تصدر عنه همهمة . . . يفتح فاه - ويرقب التعابير المنقوشة على قسمات الوجوه . . ويومًا بعد يوم أصبح وجوده الجاسم فوق الأنفس يزيد من لمعان إصفرار الوجوه ، وأصبحت لغة الصمت هى المتداولة ، والإشارات . . الخيط الواصل بين المطلوب والمرفوض يأتى البعض بألبومات الصور ، يدفن رأسه فيها ، ويعيش مع الماضى الذى كانت فيه قبل الإصابة ، التشخيص السريع للحالة «نزيف بالمخ» يتطلب نقلها إلى الأخصائى وطلب الطبيب أن يتم نقل الحالة بواسطة سيارة الإسعاف المجهزة بالوسائل الطبية ، ولا يتحقق هذا إلا بقرار من المسئول ، والمسئول لديه تعليمات بعدم اتخاذ أى قرار رغم أن الحالة لأحد مرءوسيه ، إلا أن أحدًا لم يستطع عمل شىء وهو يقضى عطلته الأسبوعية ، حيثما اعتاد ، واعتاد الكل على ألا يعرف أحدمكانه حتى لا يقطع عليه راحته ، ووقع الكل فى حيرة ، وهى واحدة من الموظفات التى كثيراً ما أعطت وما تزال تعطى حتى لحظة إصابتها بالنزيف ، حتى ولو لم تكن من العاملات بجهازه فالأمر الآن يتعلق بالجانب الإنسانى ، كثر الحديث وتوقفت اللحظة والخطورة لا تحتمل الانتظار كانت تعمل بإحدى الإدارات التابعة لمكتبه ونشاطها المتعدد جعل منها نموذجًا يدعو إلى احترامها بين كل المتعاملين معها ، وهى تخفى وراء هذا النشاط مايصبه الزمن على رأسها من معاناة ، قضت أعوام دراستها بالجامعة ، بين الإشراف على تربية إخوتها والعمل من أجل توفير

الحياة لها ولهم بعد مرض والدها الذى أصابه مـا أصابه ، وظل فى غيبوبة خمسة أعوام ، خمسة أعوام تجمدت خلالهـا فى عينيه المعانى ، وتحجر فى عينيها السؤال ، واستوطن الانتظار ، ساعدها وجـهها البشوش على أن يكون ظاهرها غير باطنها وكلما اقترب الموعد لعودتها إلى البيت ، اختفت وضاق صدرها .

كانت تغنى «لأم كلثوم» و «فيروز» وتخفى بين الجسد النحيل أوجاعها ، وإذا مرت على صفحة وجهها نسمة باردة فأكدت أنها أخطأت الوجه .

١٦

الذى تحرك لإنقاذها «صابر العايد» مسئول الأمن ، لما ذهب إلى رئيسه الأعلى ، وقدم له تقريره ، فأمـر على مسئوليته بإعداد سيـارة مجهزة لنقل المريضة ، كـانت «كريمة» قـد تدرجت فى الوظيفـة ، ووصلت إلى الكادر الأعلى . . وكانت ترفض كل من تقدم لخطبتهـا بتهذب وسماحة ، والذين لايعرفون يتعجبون . . ويكيلون لها الاتهامات ، والقلة القليلة هم العارفون تطوع أحد زملائها من الموثوق فى حكمته وصداقـته ، قال الصديق مستغلاً لحظة تشعر فيها بصفوها .

- قل دون مقدمات .

- السفر الطويل مهما طال . . لابد من الوصول إلى المحطة .

- مش فاهمة . . !!

وحتى تهرب من نفسهـا ومنـه ؛ فتشت فى أدراجهـا عـن شـىء لا تعرفه . . لكنها تحاول الهرب .

- همك ممكن يحل عن سماك إذا ما غفـوت عما بك من كرب وضيق ، تجمدت نظرتها واستكانت يدها داخل الدرج التى كانت تفتشه .

– جربى أن يسكن الحلم جواكى ، ويمسح الأمل على شعرك وأقلقى داخلك الاشتياق . . ولا تكونى بهذا الجفاء .

برقت عيناها بالدموع ، وخافت أن تشعره بالذنب . . تأسفت له .

– لم أكن أقصد .

عادت إلى سكونها ، بينما شريط حياتها ، تستعرضه وتجفف دموعها ، لم يجد الرجل بدًا من انصرافه لأنها عادت تشعر بوجوده ، أوجعتها كلمات الرجل وحركت فيها الساكن الذى لم يسكن . . !!

١٧

قام الخادم بتنظيف غرفة نومه . . . وأفرغ المطفأة من أعقاب السجائر ، وقعت عيناه على بعض الأعقاب الملونة بأحمر شفاه ، والخادم يعرف أن البيت خالٍ من الجنس الآخر .

وأحمر الشفاه لا يستعمله إلا الجنس الآخر .

الخادم يحدث نفسه .

– ربما كان هنا أحد الاجتماعات ، كيف والمطفأة فى غرفة النوم ، أتم تنظيف الغرفة واحتفظ فى جيبه بأعقاب السجائر الملونة بأحمر الشفاه .

١٨

استند «صابر العايد» على كرسيه ، وفرد طوله بعيدًا عن المكان اليومى الذى اعتاد الجميع رؤيته فيه كأنه يخالف ما ألفوه عليه ، وما عرفوه عنه

من شدة وصلابة فى الرأى ، وأصبح يستقبل عباس حسونة أثناء العمل وبعده حتى سرت الشائعة أنهم يتبادلون الزيارات المنزلية ، ووصلت الشائعة إليه .

سارع فى طلب مسئول الأمن ، وعلا صوته بالغضب وطلب منه عدم التعامل مع عباس وإلا أمر بنقلة من هنا .

ابتسم صابر العايد فى خبث العارف وهمهم بالموافقة على مقاطعة عباس ، وانصرف وصوته يرتفع بالضحك ، وكلما ابتعد ، علا صوته ، وأثار دهشة المتابعين . . له ؛ فلم يخرج من عنده أحد من قبل يضحك ، ولما سئل صابرقال :

- شر البلية ما يضحك . . !!

مع أنه لم يثبت أن الخادم هو سارق المبلغ الذى ضبط تحت وسادته ، بعد أن أبلغ فور وصوله مكتبه أن أحداً لم يجرؤ على البوح ، وطلب إقصاءه عن العمل .

والذى أصر أن المبلغ تحت وسادة الخادم هو مسئول الأمن الذى ذهب بناءً على طلب تفتيش حجرة الخادم ، بعد أن تأكد أن الخادم يأتى فى الصباح وينصرف فى المساء ، وأن الغرفة ملحقة بالمطبخ ، والخادم لم يبت الليلة بل انصرف ، وعاد فى الصباح ، فيسهل على أى أحد من داخل البيت التنقل داخل الغرفة ، ولو أن الخادم سرق المبلغ ما تركه تحت المخدة ، لكننى رأيت المبلغ تحت المخدة ، لذا أقول أن المبلغ والبلاغ وكل هذا مدسوس على الخادم .

ورغم أنه قام بالتفتيش ، ووجد المبلغ تحت الوسادة ، لم يطلب لا للتحقيق ولا للإدلاء دونه فقط فى تقريره دون أن يعلنه إلا لرؤسائه ،وهو يعرف أن الخادم أخذ بسبب الأحمر شفاه .

كان عباس حسونة قال له ضمن ماقال عن السجائر الملونة بالأحمر شفاه ، وإنها شوهدت بالمطفأة الموجودة بغرفة نومه ، وطلب من المحقق ... ألا يذكر الاتهام فى قرار النقل ، فصدر القرار يقول ...

بناءً على تعليمات .... ينقل إلى .....

على أن يتم التنفيذ فوراً .... !!!

١٩

حالة الغيبوبة متأخرة ، يمكن أن يكون إغماءً مؤقتًا ، ويمكن أن يدوم لأكثر من أيام ، إنما الحالة متأخرة جدًا .

وقع تشخيص الحالة على رءوس المرافقين لها كوقع الصاعقة ، الذى تماسك هو الصديق ، ظل ينفث دخان سيجارته فى الهواء ، ويدور حول نفسه ، يتعثر شيء على وجهه يشبه الابتسامة ، كأنه يعلن رضاءه بالقضاء ، وما قدر .. ، يومها قالت :

كيفما تريد .. !!

كأنها على موعد إذا فتحت قلبها للحياة ، هجرتها الحياة .. هى الآن ترقد على سريرها ، تواصل عذاب الموت فى استسلام مع أنها كانت تواصل عذاب الحياة بنجاح ... ، انهزمت فيها الضحكة الصافية ، لم يبق بالوجه الصبوح إلا ذبوله .. كأن الزمن كله تراكم عليه .. والكل فى حالة انتظار .. لما يأتى .

٢٠

انتبهت «شوق» لدخوله ، لم تشعر بوقع قدميه ، ولا بصوت المفتاح وهو يفتح الباب ، انتفضت من الخوف ، نهضت واقفة ، احتضنها بنظرة متأملة ، كأنه يراها للمرة الأولى ، تفحص بنظرته . . شعرها الأسود الفاحم ووجهها الأبيض وعينيها الواسعتين ، وراح يوزع نظراته حول قامتها الطويلة ، وخصرها غير الممتلىء ، كان أكثر ما يميزها نعومة كلامها ، وهمس صوتها ، تأسفت على أنها تشاهد التليفزيون ظناً منها أن نظرته نظرة تأنيب ، أسرعت وأغلقته ، ثم ذهبت تعد له العشاء في غرفة نومه .

– أنا لم أتأخر في إعداده . . إنما هو الذى حضر مبكراً ،

همهت ثم قالت بهدوء الهامس :

– أنا آسفة .

استمر في نظرته ، وضع يده على بشرتها التى اختلطت باحمرارها بين الخجل والخوف .

– مالك . . . أنا خوفتك . . ؟ !

– أبداً . . أنا بشرتى سخنة . . وملتهبة .

تناول عشاءه ، ومعه عدد من الكبسولات ، زاد إحساسها بالخوف حتى اهتز صدرها ، وهى تضع فنجان الشاى أمامه . . . وتدير مؤشر المذياع حسبما تعلمت – على محطة الموسيقى .

انصرفت دون أن تتلفظ بكلمة .

هذه هى المرة الأولى التى يراها فى هذا الوقت ، كانت تقوم بإعداد العشاء قبل عودته ، حتى مؤشر الراديو توجه إلى محطة الموسيقى وتتركه ،

كانت شـوق هدية عباس حسـونة، بعدما اتهم المحافظ خـادمه ونقله ، لم يقل له إنها قريبته حتى يحفظ كبرياءه أمام نفسه .

قبلت شوق الخروج إلـى العمل لما قال لها عباس - إنها سـتعمل عند أكبـر مسئول ، وأنهـا ستبقى مـعه ، وفي خدمتـه ، أرادت أن تخرج عن مألوف حياتها بعد زوجهـا الذى لم يترك لها موردًا ، وعرفت أنها ستكون لها إقامتـها المستقلة البعيدة عن أى منغـصات ، ومن أين تأتى المنغصات ، وهى تعمل مع أكبر مسئول . . . ، الذى عرف قرابتها بعباس هو رجل الأمن ، فاختصر عباس الطريق على نفسـه ، وعليه وعرفه أنه لم يقل للمسئول أنها قريبته حتى يحتفظ لنفسه بشيء من العزة ، وطلب منه ألا يعرف أحد ،

لم يخف صابر قلقه ، وتداعى وانحط على الكرسـى مثل الشىء غير المتماسك ثبت الكرسى فى صدر الغرفة ، حتى يشاهد الصاعد والهابط من على السلم ، قـال وأنفاسه لاهثة . . هل استطاعت «شـوق» أن تستعـيد أنفاسها ، أم أنها فقدت هى الأخرى الأنفاس ؟ ! ،

جز بأسنانه ومط شفتيـه وعلا بحاجبه ثم خفضهما فى عـصبية أقرب إلى الهوس .

٢١

منذ أن تلقت «شوق» خبر وفاة زوجـها الذى مات بلغم ، كان العدو قد زرعه ضمـن مازرعه من ألغام قبل تركه لمواقـعه لم يمت وهو يحارب ، ومات وهو يستمتع بنشوة الانتـصار ، راح ليزرع الحياة فى أرض لم يعرف أنهم زرعوها بالموت ، لما عرفت «شوق» بموته ؛ ظلت فى غـيبوبة أكثر من يوم ، وبعدما أفاقت صاحـبتها هذه الغيبوبة التى كثيراً مـا داهمتها ، كلما

أصابها أى شيء ولو بسيط لم يعرف أن هذا حالها ، وأنها بعد تقديم العشاء وانصرافها من أمامه ، سقطت على سلم البيت ، لولا أن أحد الحراس أبلغ صابر .

....

عندما جاء لم يكن فى حسابه أن الزمن تغير والحلم ضاع ، مازال يظهر أنه من طبقة غير طبقة باقى البشر ، يعيش هذا الظن حتى تضخم فيه ، كأنه قادم من أرض غير التى يعيش عليها الناس ، وينتمى لجذور ولوطن غير هذا الوطن ، لم تعد قراراته العنترية التى يصدرها لإخفاء خوائه إلا مدعاة للتنذر عند الآخرين ، وتوتر تصرفاته حتى وهو يحاول السيطرة على نفسه ، لم تعد تجد صدى عند الكثير ، ويوم الأربعاء أعادت الناس تزيين الأسطح والبيوت ونواصى الشوارع ، وعلقت القناديل ، ونصبت الخيام بطول الشاطىء ، وعلت عبر مكبرات الصوت والأغانى وإيقاع الدفوف ، وعزف النايات ، وتسابقت الناس للفرجة على إطلاق الصواريخ ، وازدان الموكب بالعلماء والفقهاء ، وكبار المشايخ ورجال الطرق الصوفية ، ومختلف طوائف الحرفيين ، تتقدمهم أعداد من قارعى الطبول بينهم حملة البيارق والمشاعل ومن ورائهم عازفوا الموسيقى النحاسية ، ووصل الموكب واصطف أمام ضريح سيدى على الصياد ، فتلألأ وجهه النبيل من جديد بأضواء القناديل كأنها الأصداف تسبح على شطه أما هو فيراها على مكتبه ككتلة لهب تبرق فى عينيه .

٢٢

كادت أنفاس الحياة تتوقف لما طلقت ابنته من زوجها ؛ بعدما داهمت الشرطة الساحة ، ومنعت المولد من إقامته وطردت المشايخ ، وصادرت

حاجات الناس الذين جاءوا من كل مكان . . ، وتصادف الطلاق فى نفس أسبوع المداهمة ، حـاول إخفاء الخبر حتى عن أقرب المقربين إليـه ؛ معتبراً أن هذا شيء شخـصى للغاية ، وإنه لايجب أن يعـرفه أحـد سواه ، لكن سرعان ما أشـيع بين الناس ، وانتشر أن الطلاق كان انتقامًـا لسيدى «على الصياد» .

ثار ثورته وأصدر قـراراته العشوائـية قبل انعـدامها فـيهم ولما طرحت علامات الاستفهام حول أسباب النقل ، كانت إجابته :

- أنا المسئول .

ولولا ترقب الناس وانتظارهم للفرج لتوقفت أنفاس الحياة فى صدورهم .

٢٣

بعد أن أعلن الصباح عن نوره ، وأشرق على الكون بصبحه ، وازدان النهار بسطوع شمسه التى فرشت شـعاعها على كل الوجوه ، أعد الصديق الزميل نفسه ، وتوجه إلى المستشـفى التى ترقد بها «كريمة» فهو من الزملاء الذين يقومون بزيارتها ثلاث مرات أسبوعـيًا ، ويطمئن عليها باقى الأسبوع تليفونيًا ، ما إن وصل ووقع بصره على عدد السـيارات الواقفة فى مواجهة القسم الداخلى يتوسطهـم سيارة الإسعاف ، وتلفهم السـيدات والرجال ، انخلع قلبه لما شـاهد سيارة الإسعـاف مفتـوحة من الخلف فى انتظار شيء يوضع فيها ، تسمر فى مكانه وتسمرت أفكاره عند كريمة - ماتت - ، زاغ بصره بين الواقفين يبحث عن أقاربها أو زوجها أو أحد أفراد أسرتها ولما لم يجد ، تحرك ذهنه بعـيداً ، وتحرك بصعوبة ليـندس بين الواقفين ، ويعرف من المتوفى ،

استعاد نفسه ، وتحرك نحو العناية المركزة التى على مقربة منه إلا أنه تصور هذه اللحظة كأنها عام ، ولعنها عندما وصل إلى قسم العناية ووقف أمام الشباك الزجاجى القريب من سريرها ليشاهدها راقدة مستسلمة تمامًا ، مازالت تحيا . اندفع بقدميه إلى المكان الذى يجلس فيه زوجها محاولاً الخروج من كل ما تلبسه وهو داخل ، استفسر منه عن أحداث الليلة الماضية ، فعرف أنه لم يحدث جديد ،

جلس بجواره . . يحيط الصمت أرجاء المكان إلا من همسات العاملين والعاملات بالقسم .

الجميع يعيش لحظات الانتظار التى تمر اللحظة فيها كأنها عام ، كل الأنظار اللاهفة متجهة نحو باب القسم أو الشباك الذى تشاهد منه الأسرة ، الكل يحسب تحركات العاملين من أطباء وحكيمات وممرضات ، إذا استمرت التحركات بطيئة ، سكنت النظرات وإذا أسرعت واكبتها ، وتناقلت معها لتسبقها ، وتعرف أو تبحث عن القادم بالمخبوء ، وتظل على هذا الحال حتى تطوى ساعات اليوم ، ويجىء الليل لتتعلق الأعين بسقف المكان ، تعد غير الموجود ، وتعيد العد مرة ومرة كى لا تغفل ، وكلما استمر الحال تعمق اليأس فى النفوس ونما بكليهما واحتدم الصراع بين الأمل والعدم ، لأنهما كما قال الأطباء . . . ليست مجرد إغماءة وإنما هى غيبوبة كاملة .

تخلص من حذائه وربع ساقيه على المقعد الذى جلس عليه مثبتًا نظره نحو الشباك ، برغم أنه لم يستطع رؤيتها .

٢٤

قال لها عباس :

«- خذيها منى حقيقة مسلمة ، إذا عملت مع الكبار تكونين كبيرة ، وتعرفين الكبار . . مثل وكلاء الوزارة واللواءات . وغيرهم ، والكل ح يكون فى خدمتك ، وإنت بتعملى مع أكبر مسئول ، واللى ح يخدمك كأنه بيخدم المسئول» .

علمها أن الكبار لا يحبون الكلام ، وكلما كان التعامل معهم فى صمت كانت فترة البقاء معهم أكبر وأطول ، هم يتحدثون فى الفاضى والمليان ، واحنا علينا السمع والطاعة . هو تعلم هكذا مع الكبار الذين عاشرهم ، وماكنش يعرف أن احد زملاء «الدشمة» هو اللى ح يكون الكبير بعدما كان بيلفهما بطانية واحدة ، وسرير واحد ، وساتر واحد ، يداروا وراه لما تتوهج فى عيونهم لهاليب النار المشتعلة حولهم من كل مكان ، ومافيش غير قفص الصدر بيعلى وينخفض زى يكور الحداد .

كانت شوق تسمع له وتستنشق رائحة القلق الفائح من كلامه ، حلفت له برحمة جوزها . لو ما ارتاحت سوف ترجع وتقيم فى منزلها ، ولن تفكر فى كونه كبيراً أو مسئولاً ، كانت تعرف الاعيب عباس وتخاف من كلامه ، وتسأل لماذا اختارها هى من بين كل أقاربه ، ولأن الأمر غريب ، وغير مفهوم . . لم تصدق أن اختيارها لهذا العمل الخطير والخاص جداً ، كما قال لها . . أنه من أجل مساعدتها ، ولابد لعباس حسونة مصلحة فى اختيارى للعمل . . .

هو يحكى عن زمالته لهذا المسئول طول فترة التجنيد ، وهى تحملق فيه مذهولة ، وتسأل نفسها ، أتصدقه رغم نظراته اللئيمة والقاسية التى لا تخفيها ابتسامته لم تستطع أن تقول له شيئًا أو تسأله أى سؤال ، وكلما همت بسؤاله ، تذكرت إصرارها على عدم مد يدها له أو لغيره من الأقارب .

٢٥

لما ذهبت مع عباس لمقابلته انتفض واقفًا ليصافحها وهو مشدود إليها ، إلا أن عباس أوعز له - إنها العاملة التى حدثه عنها ، استعاد نفسه ، كان زيَّها الأسود الذى ترتديه يعكس لون وجهها الذى اختلط بياضه بالحمرة ، وهى حبيسة نفسها ، وحبيسة المجهول ، كلف مسئول الأمن بتوصيلها إلى البيت كأنه يريد أن يقول له . . أنا أعرف أنك ترصد خطواتى وبدلاً من التلصص خذها أنت حتى تعرف أنها العاملة ، ومسئول الأمن يعى الرسالة ، ويقوم بتوصيل «شوق» وفى الطريق ، لاحظ أنها تتثاقل خطواتها فى تعثر وكأنها غير راغبة فى الذهاب للعمل ، يوقن أنها مرغمة على شىء ، تباطأ كى يظل بجوارها ، حاول التودد بالحديث ، آثرت الصمت . . ليس عملاً بوصايا عباس وإنما الخوف الذى تملكها ، كانت تسير كأنها شاة سحبت لذبحها - تعرف الشاة إنها تسحب لذبحها ، وتسير مسلوبة القدرة على الهرب .

بدأ مسئول الأمن فى تقديم نصائحه ، ودون أن يعرف أن عباس سبقه وملأها بنصائحه ، إلا أنها شعرت أن فى نصائح مسئول الأمن صدقًا لم تحسه فى عباس . . . ، لأنه لم يماطل بالقوة أو يدعى كل ادعاءات عباس ، حثها على الحفاظ على نفسها وعدم انبهارها بما تشاهده فى المنزل ، لم يقل لها ما سوف تشاهده إنما الكلام يدل على أن هناك ما يفتن ، تركها تفهم دون إيضاح . ساعدها كلامه على احتواء ما بداخلها من خوف حتى أنها أسرعت الخطوة ، كأنها ترغب فى مواجهة المجهول ، وما إن وصل بها إلى البيت وأطلعها على محتوياته ، وانتقل بها من مكان إلى مكان .

كانت شاردة فى أنه يعرف كل كبيرة وصغيرة فى البيت ، طمأنها عن مكانها الذى ستعيش فيه ، ارتاحت لما وجدت المكان بعيداً ، ومنفصلاً عن

باقى المنزل ، تحركت داخل المنزل خفيفة مهفهفة تزاول عملها الجديد وفتحت كل الشرفات المطلة على الحديقة الملحقة بالمنزل ، والمطلة على المنازل المجاورة به لم يعتد أحد رؤية النوافذ والشرفات مفتوحة ، وكأن حياة جديدة دبت بالمنزل وتنقلت من غرفة إلى غرفة ، غيرت من الشكل المألوف ، بدلت غرفة النوم بالصالون ، وغيرت كل المعالم ، وسمحت للشمس بدخول البيت من كل الأماكن التى يمكن دخولها منه ، تعرفت على كل شيء داخل وخارج المنزل حتى ساعة وصوله ، لم يصدق أنها تجوب الحديقة ، لولا أنه شاهدها تجمع منها الزهور ، لم يصدق نفسه لما شاهد كل هذا التحول الذى طرأ على المنزل .

الشرفات المغلقة والنوافذ تفتحت ، وتفتح معها لون الحياة ، اندفع مبهوراً نحو الشرفة كأنه يحتوى بين ذراعيه البيوت المجاورة ويحصى الألوان المتناثرة بين أحواض الزهور وظل يتجول بعينيه حتى استقر بهما ناحية البحر وغاب فى الأفق البعيد ، واستيقظ على صوت كشقشقات الطير .

٢٦

بعدما تردد عن أعقاب السجائر الملونة بأحمر الشفاه ، نقل سهراته بعيداً عن البيت وحتى لا يعرف أحد عن مكان سهراته شيئًا ذهب لقضائها خارج المدينة ، حتى لا يكون عليه رقيب ، هو يعرف أن هناك رصداً لكل تحركاته كباقى المسئولين فى أى موقع ، ويعرف أن الرصد يتبعه تقارير ؛ لأنه هو أيضًا يفعل هذا منذ أن حضر ، كلف عدداً من مرءوسيه برصد ومتابعة كل العاملين التابعين له وكتابة تقارير عن كل واحد ، أصبح يترك سائقه ويستقل سيارته حتى لا يعرف أحد فى أى مكان يقضى سهراته ، لكن لم يدم هذا طويلاً فسرعان ما تطايرت الأخبار لقرب المكان الذى

اختاره لقضاء سهراته ، لأنه نسى أن العلاقات الأسرية والاقتصادية للبلدين المتجاورين يمكن أن تجعل التنقل بينهما ميسوراً حتى أن عدداً كبيراً يتنقل أكثر من مرة فى اليوم الواحد ، ومنها تناقلت الأخبار ، كان يذهب فى المساء ، وقبل أن يعود .. تأتى أخباره مع القادمين ، وهو فاهم أن هذه الوسيلة - وسيلة - مأمونة أبعدته عن أعين المتلصصين وأنه على الأقل يعيش حياته بعيداً عن مكان عمله .

٢٧

لم يزل صامتًا معلقًا عينيه نحو الشباك ، وفى وجهه مضض الانتظار وإجهاد اليقظة للهروب من المجهول الذى ينتظره الجميع ، وهو يقلب شفتيه ويغمض عينيه بين الحين والحين محاولاً الهرب من هواجسه ، ومن التفكير أو العودة إلى الوراء لاستذكار ما عاشته من عمر تعانى ، وتناضل لتبقى قادرة على إخفاء ما تحمل من هم ، كانت تذيب هذا الهم فى دأبها على الدراسة ، واستغراقها فى العمل والنشاط بل الأنشطة لأنها جمعت بين عدد منها ، كانت تلاطم دروب الحياة المتعرجة وتسبح فى تياراتها المتلاطمة .

عاد يرقب زوجها بطرف عينيه ، يفك رباط عنقه بيده المرتعشة ، فتسير ارتعاشاته فى أعماقه ، تلفت حوله ليستعيد رؤية المحيطين به والجالسين على المقاعد ، ويرهف سمعه كى يستمع إلى ذبذبات الأصوات الآتية ؛ فيأتيه شهيق الأنفاس وزفيرها كأن الزمن توقف وأصبح قاحلاً .. لا زروع فيه ولا حياة . حالة الصمت المطبق والكآبة التى أحس بها تملأ وتحيط جدران المكان ، إحساسًا غامضًا بأنه إذا خرج سيحدث شىء ، رغب فى رؤيتها عن قرب ، حاول اجتياز الباب الموصد الذى يحدث صريراً خفيضًا إذا فتح ؛ أراد ألا يحدث دبيبًا مقلداً العاملين فى قسم العناية ،

فهم حريصون على ألا تكون خطواتهم مزعجة كى يكون المكان هادئًا وهو من طبعه الهدوء ، إلا أنه يسأمه الآن . . يتمنى أن يحدث ضجيجًا بجذب انتباه الجالسين على المقاعد كأنهم «خشب مسندة» حاول تبادل الحديث مع الجالس بجواره على المقعد ، رمقه بنظرة ، وغمغم بشىء لم يسمعه ، رغم ملاصقته له فى المقعد كأن للصمت دوره ، فى مثل هذه الحالات ، انتابه نوبة من الغضب الداخلى ، لم يجرؤ على الصياح ؛ لأنه هو الذى سيسمع صوته ، كأنه وحيد فى فضاءٍ لا حدود له .

ارتعش صدره ، وهو ينظر فى الوجوه المحاصر بها ، قلّب صفحات الوجوه محاولاً قراءتها ، فلم يستطع قراءة شىء . . . تحرك نحو الباب ودفعه ، أحدث صريرًا ، أغلقه دون أن يدخل ، أصبح واضحًا توتره ، جلس بعيدًا يتذكر يوم أن قال لها ياريتك تقلقى نفسك على نفسك ، وطالبها أن تكف عن رفض كل من تقدم لخطبتها ، وأن تفكر فى العمر الذى يتسرب منها دون أن تدرى . . . ، بل جاءها يومًا بزوجها هذا ،

تذكره وهو فى بداية أيام الخطوبة ، خطف القدر ابنته ، وراح الخطيب يتم ما بدأه بدونه ، ورفضت حتى الحديث عن أى شىء ما لم يكن موجودًا ، يومها قال خطيبها إن حزنه على ابنته سوف يجعلنا ننتظر كثيرًا ، وقالت لننتظر حتى يأتى ويتم ما بدأه ،

بينما هو غائب فى ذكرياته ، علت الأصوات فجأة واستيقظ على ضجيج الحركة التى ملأت المكان كأنه استجاب لطلبه ، انتبه الجميع للضجيج الذى ملأ الممر المؤدى إلى قسم العناية ، اندهش لهذه التحولات ، ولحركة الأطباء غير العادية ، وصوت الممرضات الذى بدأ فى الارتفاع ليواكب سرعة الحركة أصبح كل شىء غير عادى ، الكل يسرع نحو باب القسم ، حتى صرير الباب ، ازداد ارتفاعًا لكثرة فتحه وغلقه . . الكل ترك

مقاعده ، واتجـه نحو الأطباء ، وجاء النزول ليجـذب انتباه الكل ويعلن أن هناك شيئًا .

انفتح البـاب على مصراعيـه ، ودخل الترولل ، وخرج ترقـد عليه «كريمة» لكنها مغطاة نصف غطاء ، اختلط اليـأس بالأمل ، وتحجرت العيون ، وتوقفت الأنفـاس واندفعت الأسئلة ، المحـبوسة قبل أن يقـول الطبيب أن يدها تحركت .

كانوا ينقلونـها إلى غرفـة الأشعة لالتـقاط صورة جـديدة للمخ حتى يحدد الطبيب مدى الاستجابة ، وهى فى طريقها إلى غرفة الأشعة . . كان يسير بجوار الترولل من جهة وزوجـها من الجهة الأخرى ، كلما كان ينظر إلى زوجـها . . يقـول يدها تتحـرك ، وجد التليـفون المعلق على جـانب الطريق المؤدى إلى غـرفة الأشعـة ، تمنى لو أدار قرصه ، وأبـلغ العالم أن يدها تحركت ، مـسح بيده على رأسهـا ووجههـا ، وكان لا يزال بجبـينها بعض التورم ، وآثار اللاصق الذى تم به لصق الأجهزة المثبتة ، لمتابعة المخ .

بقى خارج الغـرفة انتظاراً لنتـيجة فـحص الأشعة ، ازدحـمت رأسه بالأخيلة وعاوده تذكر الماضى ، ويوم زفافهـا الذى أمطرت فيه الدنيا ، كما لم تمطر من قبل ، وتعطلت السـيارة التى زفت فيها هى وزوجـها ، وعدم إمكانية وصولهـا إلى منزل الزوجية إلا سيراً على الأقـدام لمسافة تزيد على الكيلومتـر ، ويومها اعتبـر البعض هذا فالاً سيـئًا ، والبعض اعتـبره بدعة جديدة فى عالم الزفاف .

أعادوها إلى سريرها بالعناية كأنها لم تكن ، ولمـا حاول استيضاح الموقف من الطبيب ، قـال إنها لم تستـجب ، وهم يضعونهـا على سريرها . . ، رآها شديدة النحـافة والطول ، ورأسها تشـبه حجم البـيضة المرسوم عليـها باللون الأصفر عينان . . وفم . . وأنف . . !!

٢٨

شيئًا فشيئًا استطاع الديب أن يطول برأسه رأس المحافظ بعدما أعجب المحافظ باليخت الذى يملكه الديب ، كانت البداية يوم مرور المحافظ ، واستوقفه الديب ليعرض عليه بعض مطالبه الخاصة فى صورة مطالب للمواطنين من أهل القرية ، ويومها دعاه لرؤية مراكب الصيد عند انطلاقها وانتشارها فى البحر للسفر . الكل يشارك فى الأفراح والتوديع ، لحظة يختلط فيها الفرح بالحزن ، والابتسامة بالدموع ، توديع الزوجات لأزواجها على أمل عودتهم ، وبعد الانطلاق والسفر تتبدد الأفراح وتذوب فى الانتظار ، وينشغل الكل بما له فى البحر ابنًا كان أو زوجًا ، تنخلع القلوب من الصدور ، وتظل هائمة لا تهدأ حتى يعود الغائب ، وكثيراً ما يطول السفر ، ورغم أن الجميع يعرف أن السفر غير محدد الموعد ، لكن الخوف من البحر . . . يومها استوقف نظر المحافظ شكل اليخت وتصميمه ، قال له الديب إنه كان مركب مثل باقى المراكب وحوله خصيصًا إلى يخت من أجل أن يكون لائقًا بتشريفكم لأنه يسعده قضاء أوقاتكم فيه ، أما المحافظ فرآه بالفعل شيئًا مغايراً للأماكن التى يقضى بها أوقات فراغه وسهراته إلا أنه حاول إخفاء إعجابه وأبدى عدم اهتمامه بما قاله الديب ، حتى لا يمنحه شرف الاقتراب منه .

كان قد عرف عن المحافظ ضمن ما عرفه ، أنه لا يلقى السلام على أحد أو يرد السلام على أحد ، ودائمًا ما ينهى الأمر بنظرة يشعر منها البادئ بالسلام إنه يرتكب جزءاً بانتظاره رد السلام ، وعرف عنه ضمن ما عرف نشوته يسعى الآخرين إليه ، وإحساسه بأنه العاطى والمانع ، ومع ذلك كانوا يحاولون تضخيم هذا الإحساس داخله ، ويعملون على راحته إما بتلبية كل ما يطلب أو متظاهرين له بالود والرضا والحب متسابقين فى تلبية أوامره رغم أنهم جميعًا يخفون داخلهم من الغيظ ما يملأ الكون كله .

وشيئًا فشيئًا بدأ الديب يبحث لنفسه عن الوسائل البديلة حتى لا يكون مثلهم واستطاع أن يقترب منهم بكثرة هداياه التى كلما أتى بها ادعى أنه كان مسافراً ، وأنه تذكر سيادته فى سفره ، فأحضر له هدية ، وإن كانت الهدية من أجود أنواع السمك ، قال له إن هذا وفاء بالنذر ، لأن الصيادين عند استعدادهم للسفر بمراكبهم استحضروك فى نفوسهم ليتفاءلوا بك ، المهم عند الديب الهدية لا ترد ، على أن المبرر فى كل مرة عند المحافظ يكون مقنعًا حتى أن تبريرات الديب ، كانت تسعده لما فيها من إطراء يشبع غروره ، وتحايل الديب وأجاد ، ولم يبق إلا الحصول على ما يرغب من الاستفادة ، لكن فى كل مرة كان يؤجل طلباته حتى يعتاد المحافظ المرور على اليخت .

اشتهر الديب بهذا الاسم من طفولته وذاب اسمه الحقيقى فى هذه الشهرة ، وأصبح لا يعرف إلا بالديب فقط ، كان يتذكر اسمه طول فترة الدراسة لما كانوا يأخذون الغياب فى الفصول ، تعلم الديب وعمل مدرسًا فى قريته ثم جند وبقى فى الجيش طول فترة حرب الاستنزاف ، وكما يقول إنه شارك الأبطال فى العبور ، وكثيراً ما كذب هذا القول عباس حسونة ويؤكد أنه إن كان شارك فعلاً فعلى الأكثر فى الخطوط الخلفية ، وكثيراً ما اشتعل الخلاف بينهما لو تصادف وجودهما فى مكتب المحافظ ، وكثيراً ما انتهى الخلاف بتفوق عباس ، وكأنه يعرف كل الذين شاركوه فى هذه الحرب ، وينظر إليه الديب بازدراء كاشفًا عن رباط جأشه .

«مهما كنت لا تساوى شيئًا . . إنما لابد من مداهنتك ومهادنتك حتى أمتلك زمامى» ثم يعلوصوته مردداً :

– يا عم خد إنت الأوسمة وزين بها صدرك ، واكتسى وجهه بعدم الرضا لمناصرة المحافظ لعباس حسونة .

٢٩

يبقى السؤال المطروح حـول ثراء الديب الذى حط عليه بين يوم وليلة دون جواب ، وظلت الناس تتناقل التـخمينات وتتبـادل الآراء ، فمنهم من يقول إنه عثر على حقيبة فى أحد الدشم وبها مبلغ كبير ومنهم من يؤكد أنه فى سفره الأخير استطاع أن ينقل شحنة من الممنوع على المركب الذى عمل عليها بعد خروجه من الجيش ، فالكل يعرف أنه يعمل حتى مدة الإجازة لما كان طالبًا ، ولما كان فى الجـيش يقضى إجازته يعمل على المراكب ، واتفق الجميع على الرأى القائل ، أنه كان ينقل الممنوع ، وأصبح معروفًا سر ثرائه عند العامـة ، وسر تحوله من أجيـر يعمل على مراكب الغيـر إلى صاحب مراكب وصاحب أرصدة ، وحسـابات بالبنوك ، وتبدل الحال . وينتقل إليه الجاه ، ويبقى الديب هو الديب كما أطلق عليه هذا الاسم ، وهو صغير ، ينزوى بعيدًا ثم ينقض ليفوز بما ينقض عليه .

٣٠

أما «إمرية» الذى جاء إلى القـرية بنفس الطريقة التى جاء بها «الديب» ، بل قبل مـجىء الديب بوقت طويل ، لكنها نفس طريقـه الوافد الذى يظل يتسلق حتى يثبت أقدامه .

جاء «إمرية» وعمل قبل الديب بعده إلا أنه لم يصل إلى ما وصل إليه ، بل أصبح من أتباعه ، والمؤتمرين بأمره ، خصوصًا بعدما بادر ، وقام بالانفاق على إجراء العـملية الجراحيـة لزرع عضو «إمرية» التناسلى والـذى كان قد قطع وهو فى الأسر . . !! بعدما ظل مختبئ لوقت طويل من البدو . . ، وقد عرف أنه من الجنود الذين قاموا بأعمال كثيرة ضد العدو ، وسواء قبل الاعتراف بـالنكسة ، أو بعد إعلانهـا ، كان هو وعدد كبـير من الجنود لم

يصدقوا مـا وقع بهم من هزيمة ، بل رفضوها ورفضوا أيضـًا الانسحاب ، وظلوا يقاتلون ، ولما أصبح الانسحاب أمراً واقـعًا لا مفر منه غير الموت ، بعدما رأوا الاحتلال قد أحكم سـيرته ، وانتشر العدو فى كل مكان حولوا حربهم إلى كـفاح مستـتر ، واستمـر حتى نفذت قدرتهم على المقـاومة بل وباعهم أحد البدو إلى الأعداء ، فقتل منهم من قتل وأسر من أسر ، وكان «إمرية» قد وقع فى يد أحد قادة العدو وكان من هوايتـه حسبما قال «إمرية» التمـثيل بأسـراه ، وقطع أى جزء من أعـضائه حسـبمـا يختار هـذا القائد ويحتـفظ بهذا الجـزء ضمن مقـتنياته ، وكان نصـيب «إمرية» قطع عـضوه التناسلى ، وظل يخفى هذا عن الكل حتى أن انكشف الأمر فاتخذ «إمرية» منه مادة للتفكه ، وكـان يقول أصل هذا القائد كان فى حاجـة إلى عضوى لإشباع نوازعه ، وأصبح هو والموضـوع مادة للتفكه بين «إمرية» وباقى أهل القرية ، وعادت الابتسامة على وجهه الطفولى ، وبدأ يجعل من حديثه من أيام الحرب التى لم يتحدث عنها منذ عودته إلا بعـد اكتشاف قطع عضوه ، بدأ يجعل من حـديثه مادة لكســو ضجر الحيـاة اليومية ، كـان لا يقبل أن يسمع كلمة نكسة ، ولا يقبل من أحد أن ينطق بها ، وكأنه يقصد أن يفتح حواس سامعيه ، كلما تحـدث لهم عن الحرب ، حتى ألف الجميع الحديث عن الحرب ، وأصبح هناك دائمًا إحساس بالتـهيوء والانتظار وكأنهم يقفون من زمانين منفصلين ، وينتظر حتى يحضر «إمرية» ليصل بينهما .

ظل الديب يحفظ لإمرية أنه هو الذى علمه ، كـيف يسير على السقالة ، ويصعد إلى المراكب ، وعلمه أيضـًا فن «السملخة» دون باقى الأولاد الذين كانوا يعملون مـعه ، كان إمرية فى كل مرة ترسو فيـها المراكب العائدة من رحلة الصيد يصطف بالأولاد تابور ، ومع كل ولد «غلق» كتب عليه اسمه ، وأول ما ترسو المـركب يسحب «غلق» الأول ويصعد المركب ليـحصل على رزقه ممـا عادت به المركب من صـيد ثم ينزل ، ويسلم الغلـق لصاحـبه ،

ويأخـذ الغلق الثانى ، ويعـود إلى صعـود المركب الثانيـة ، وما فـعله فى المركب الأولى يفعله فى الثـانية حتى تملأ جميع «الغلـقات» فتنطلق الأولاد لبيع ما حصلوا عليه فى حوارى القـرية والقرى المجاورة ، وبعد البيع يعود كل واحد ويسلم النقود إلى «إمـرية» وكان الديب وحده من بين الأولاد قد قبل أن يسـتمر فى التـعلم ، ولأنه كان يحرص على تعليـمه ، كان كثـير الغـيـاب عن تابور الأولاد أمـام المركب وإمـرية يحب إصـرار الديب على التعليم ، فكان يحمل هو غلق الديب ويبـيع ما حصل عليه باسم الديب ، ويحفظ له حقه رغم عدم مشاركته ، ولم يعلم أحد من الأولاد السير على السقـالة أو الصعـود إلى المركب غيـر الديب ، فكلما تواجـد الديب وقت تواجد المراكب ، اصطحـبه إمرية مـعه وصعـد به حتى أن الصيـادين كانوا يتلامزون فيما بينهم عن اهتـمام إمرية بالديب ، وظل على هذا الحال حتى جند إمرية فتـولى الديب كل ما كان يقوم به إمـرية حتى الأولاد انقادوا له كما كانوا مع إمرية ، وكان إمرية قد ذهب ضمن الكتائب التى سافرت إلى اليمـن فاعتـبروه مـحظوظًا لأنه سوف يحـصل على «الكيف» دون عناء ، وكان قد عـرف عنه الكثير ، وأن الكيف لا يفارقه حـتى عند نومه ويقظته وبعد تجنيده ، عـرف بين زملائه وقواده بطوله الفارع ، وكـان طوله يقترب من المترين ، وعوده يشبه الشجرة نحيفة القوام .

طول فارع وعود يثـير الدهشة لنحافته ، ووجـه يطل منه الاحمرار ، كأنه الدم يكـاد يتفجـر منه ، هذه التركيـبة التى تكون منهـا إمرية جـعلته «فسوخة» كـل زملائه من الجنود ، وحتى قواده مما كان يجعلهم يستغاضون عن الكثير من أخطائه ، وما أكثرها فـهو من الصعب عليه أن يألف حياة الجندية ، وربما كان سفـره إلى اليمن فى صالحه ، وإلا كان الفـرار هو أسلوب حياته طول فترة تجنيده ، ظل باليمن حتى صدور الأمـر بتحريك كتيبة إلى سيناء وقت الإعداد لحـرب ٦٧ ، ولم يمض عليه إلا قليل من الـوقت ، وشاهد

تساقط زملائه من الجنود ورؤسائه من القادة فور اشـتعال المعركة ، وكان قد تمركز مع كتـيبة بالعريش ، وانطلقت المعركة قـبل التعرف على أى شيء ، ثم وجد نفسـه بين الفارين والهاربين من جحيم الحـرب وتحركت نخوته ، وأصر على عدم الفرار والبقاء بين البـدو وباقى الذين وافقوه على البقاء من الجند حتى أنه اشتـهر بين زملائه بالمقاتل العنيد ، واشتـهر بين جنود العدو بالمراوغ ، لأنهم كلمـا نصبوا له كـمينًا للقضـاء عليه اسـتطاع الإفلات منه والهرب ، ولم يـتمكن العدو من أسـره إلا حينمـا باعه أحد الـبدو الذين عرف بعد ذلك أنه يعمل مع العـدو ، ولما أسر كان قد انتشر خبر مـقاومته بين جنود العدو ، وقاداتهم مما جـعل الاهتمام بأسره ، أكثـر من الاهتمام بباقى الأسرى ، وتفنن الجميع فى تعذيبـه والتنكيل به ، وأظهر هو مقاومة عنيدة فـاقت عناده وقت مقـاومتـه لهم بالحرب فـأثار غيظهم وحـقدهم ، وأجمع الكل على قتله حتى فكر أحدهم فى قطع عضوه التناسلى ، وتركه كى يعيش فاقـدًا رجولته ، واعتبر هذا أصـعب من الموت على نفس مقاتل مثله . هذا المقاتل العنيد ، وظل بالأسر لا يعرف أحد عنه شيئًا ، لدرجة أنه أعلن من المفقودين ، وانتشر خبر فقده فى كل مكان فى القرية ، وبعد فترة أعلن أنه أسير ، وأنه بصـحة جيدة ، وأنه سوف يفرج عنه قـريبًا ، وأفرج عنه ، وبعد الإفراج استقبل الاسـتقبال الحافل ، وهو يقابل الناس بإنكسار ملحوظ فسره البعض على أنه نتيجة التعذيب ، والبعض بأن إمرية كان يود لو استقبل عائدًا من الميدان منتـصرًا ، وأن هذا الانكسار هو انكسار النكسة الكامن فى نفوس الناس جميعًا وإن كانوا يحاولون تجاوزه ، هو لا يستطيع لأنه عـاشه هم يفـسرون حـسب تصوراتـهم ، وهو يجيب على الأسـئلة الموجهة إليه من المسئولين عن الأمن تحت شعار لدواعى الأمن .

- كيف وقعت فى الأسر ؟

- لماذا لم تنسحب مع باقى الجنود ؟

- كيف قضيت هذه المدة ؟

- أين سلاحك ؟

- ماذا قلت للعدو ؟

- وبماذا اعترفت ؟

- كم عدد الجنود الذين كانوا معك . . وهل أنت الذى منعتهم من الانسحاب أم تضامنوا معك ؟ ولماذا هذا التضامن ؟

- هل تركتم ما كان معكم من ذخيرة ؟ أما نفذت منكم . . . وفيما نفذت ؟ !!

- كيف تعايشتم مع العدو ؟

- كيف وقعت فى الأسر ؟ ولماذا وقعت ؟ !

- لماذا لم تقاوم حتى الموت ؟ . . . ألم تعرف أن الموت شهادة ؟ !

- كيف سمحت لأسرك ؟

- أليس هذا عيبًا فى حق الجندى ؟

هذه الأسئلة ، وهذا الضغط العصبى الذى مارسوه معه ؛ باسم دواعى الأمن ، أعاد لذهنه ما تعرض له فى طفولته ، وهو يعمل صبيًا فى أحد المحال الصناعية ، بعد ما ترك المدرسة . فى أعوامه الأولى ، كان مازال صبيًا لا يتجاوز عمره اثنتى عشرة سنة ، وأرسله صاحب العمل لشراء بعض اللوازم ، هو آخر المشاوير لأنه اجتاز فترة الاختبار المتعارف عليها عند أصحاب الأعمال ، يأتى الصبى إليهم ؛ منهم الذين هجروا المدرسة مثل إمرية والذين لم يعرفوا طريقهم إليها وما أكثرهم ، يتدرج

الصبى على يد صاحب العمل ، ففى البداية يقوم بالخدمة فى منزل صاحب العمل ، يخدم الزوجة والأولاد حتى يتمرن بلغة أصحاب العمل ، وبعد فترة ينتقل الصبى من الخدمة فى المنزل إلى الخدمة فى المحال من الأدوات للصناعة ، ولما تنتهى المدة المقررة لهذا العمل والذى لا يقل عن العامين ، بعدها ينتقل الصبى إلى التدريب المهارى داخل المحال ،

ولأن إمرية اجتاز كل هذه المراحل ، وكان وعد صاحب العمل ، إن هذا المشوار هو آخر المشاوير ، فرح إمرية بهذا الوعد لأنه سوف ينتظم فى التدريب المهارى . . ، انطلق لشراء المطلوب تراوده أحلامه الطفولية ، وتمتزج بفرح وانتظار العودة سريعًا ليرى نفسه وهو واقف أمام الماكينات ، يتدرب ويقول له صاحب العمل يا أسطى إمرية .

كانت رقة حال أسرته منعكسة على مظهره ، فكان إما أن يرتدى بنطلونًا لأخيه الأكبر منه ، فيبدو داخله كأنه غير موجود لشدة نحافته ، أو يلبس بيچامة رثة الشكل والمظهر ، وإمرية لا ينشغل أبدًا بهذا ، ولا ممن يضحكون على شكله . . .

ربما لعلمه بحال أسرته ، أو حتى لا يتيح لأحد فرصة أن يجعل منه كاريكاتير ، وبينما هو فى طريقه لشراء المطلوب أوقفه أحد الجنود ، وهات يا أسئلة مدعيًا أنه يشك فى مظهره ودواعى الأمن تجعله يتحفظ عليه ويأخذه للتحرى ، وهذه أول مرة يسمع فيها دواعى الأمن ولا يفهم لها معنى ، حاول جندى الشرطة ترويع الصبى «إمرية» وقام بتفتيشه ولما وجد معه النقود هاج ، وماج وأخذها منه ، ووجد «إمرية» فرصة لابد من الهرب ، فانطلق جريًا ، ولم يتوقف ، ولم يبذل الشرطى أى محاولة للإمساك به ، وكأن مهمته كانت تنحصر فى الحصول على النقود التى معه لدواعى الأمن .

انتظر صاحب العمل عودة «إمرية» وانقضى اليوم ، بل الأيام دون أن يعود إمرية الذى هرب بعيداً ؛ خوفًا من عدم تصديق صاحب العمل أن الشرطى سرقه وحتى إذا قص على أسرته هذه القصة فلن يصدقوه ، وهرب وترك بلدته وظل يتنقل بين القرى وهو يحمل داخله خوفه ، وتبدد أحلامه وفرحه ، اختلطت الأسئلة بأصوات أهل القرية المنتظرين خارج مقر توجيه الأسئلة ، الكل يحاول رؤية البطل ولا يعرفون الضغط العصبى الذى يتعرض له بسبب قوة السائلين ، ونظراتهم المليئة بالاتهام ، وكأن الشرطى الذى سرقه بينهم ، هم يسألون وهو يفتش بعينه المكان كله ، كأنه يبحث عن هذا الشرطى ، تخيل أن المكان هو نفس المكان الذى حرمه فيه الشرطى فرحته ، وبدد حلمه أن يكون عاملاً ماهراً ، بل حرمه طفولته .

ظلوا يمطرونه بالأسئلة ، كأنها السيل ينهمر فيدور مترنحًا وتدور به الغرفة المغلقة ، وهو مازال يبحث فى وجوههم عن الشرطى ،

- كانكم هو . . !!

- تقصد مين ؟ !

- هو يومها قال «من دواعى الأمن» ، ولم أفهمه .

- من هو الذى قال لك - من دواعى الأمن - ولم تفهمه . . (يهودى) .

- هو زيكم .

- يعنى يهودى ولا مصرى ، حدد وخلى إجابتك واضحة .

- أوضح أكثر من كده إيه ، قلت زيكم ، ماهو أنا كنت صغيراً يوم ما أخد منى النقود ، وقال هذا لدواعى الأمن ، يومها . . لم أكن أعرف هل هو يهودى أم لا . . !!

هو سرق طفولتى وأنتم بتسرقوا آدميتى . . !!

لم يلتفت أحد لما أصابه ، أو يسأله عن نفسه ، وانصب اهتمام الجميع على دواعى الأمن . . وكان عليه أن يقاوم بنفس ما قاومه من قبل هذا التعذيب ، وهذا التشكيل الذى لاقاه فى عنف هذه الأسئلة المريرة .

امتلأت نفسه بالمرارة ، وظل يخفى سره حتى أباح به إلى الديب فهو الذى عرف السر من بين أهل القرية جميعهم .

ونصحه الديب أن يرسل إلى «عبد الناصر» يطلعه على كل التفاصيل ، وأرسل «إمرية» خطابًا إلى «عبد الناصر» لكنه احتفظ أيضًا بهذا السر خشية أن يقع الخطاب فى يد أحد غيره .

وكان ما كان ، استدعى لمساءلة أمنية ، وأنذر بالعقاب ، ثم أرسل مرة ثانية ، وتعرض للمسائلة الأمنية ، وهدد بالعقاب ، وفكر وهو فى طريقه إلى القرية بعد حصوله على أول إجازة ، فكر فى إرسال خطاب من مكانه إلى «عبد الناصر» وأصابت الفكرة ، وبعد وقت ، أرسل عبد الناصر بتوجيه «إمرية» إلى أحد المراكز الطبية التابعة لقريته لتوقيع الكشف عليه ، وبعدما سافر تمت إجراءات الفحوص ، وتحدد موعد الكشف لإجراء العملية ، وقبل الموعد مات «عبد الناصر» ، ومات معه الموعد . .

ومات الأمل الذى كان قد راود «إمرية» وبموت الأمل ، انتشر الخبر الذى ظل لوقت طويل فى طى السرية ، فعرف الجميع سر إنكساره .

لم يتركه أحد . . أسيراً لأحزانه ، وفقدان آماله التى حلم بها ، وعاش من أجلها منذ بدأت إجراءات الفحوص . . بل بادر الكثير فى العمل على إخراجه من إنكساره ، وتسابق الكثير فى التطوع والمساهمة لإجراء العملية ، إلا إنه رفض أى مساهمة منهم ، حتى لا يشعر بشفقة أحد عليه

واحتفظ بها داخله ، غلفها بغلافه المرح المصطنع ليشعر الجميع أن هذا الأمر أصبح لا يمثل له أى أهمية حتى لا يساهم فى نفقات علاجه أحد من أهل القرية ، وليطوى هذه الصفحة ويضع حداً أمام رغبة الكل التى أصر على رفضها ، وارتضى أن يجعل من الأمر مادة للتفكه فى جلسته ، وسهراته بين سحابات الدخان المتطايرة والمحلقة فوق رؤسهم ، كان رغم شعوره باحترام الجميع له حتى وهم فى مجلسهم هذا إلا أنه كان يأخذ «النفس» ويختلس النظر فى وجوههم ليقرأ ما يحاولون إخفاءه ليستقرئ حقيقة مشاعرهم . . ، ثم يعاود . . أخذه «نفس أطول» بعدها يطرح رأسه خلف ظهره ناظراً إلى السماء . . فلا يعرف أحداً إن كان لحظتها يطلب من السماء الفرج أم كان يدعو على من أهمله ، وهو الذى لم يهمل واجبه أو يقصر فى حق الوطن .

٣١

مع أول بيان لعبور قواتنا للضفة الشرقية ازداد ألمه ، وأمله واشتعل غيظه ، لا لإنه لم يكن ضمن قوات العبور ، ولم يشارك زملاءه ، ظل على غيظه وألمه فلم يهدأ إلا بعد أن هداه تفكيره إلى ترك القرية واللحاق بهم ؛ ظنًا منه أن من اليسير الانضمام .

ازداد حماسه بعد محاولة أهل القرية منعه من السفر ، استوقف أحد الشباب ، فأجابه الشاب أن من العسير أن يكون بينهم فانطلق مسافراً إلى الجبهة ، وهو يمنى النفس بالانتقام ممن أذلوه . . ولكن على مشارف الضفة الغربية ، استوقفه رجال الشرطة العسكرية ، . . حاول معهم بكل جهده أن يلحق بأول سرية ستعبر ولكنهم رفضوا عندما عرفوا أنه ليس من المجندين الحاليين وتشككوا فيه لولا حماسه الذى ارتسم على وجهه ، ولم يطمئنوا إلا بعد

أن روى لهم حكايته ، وإذ يأس ، وأيقن أن لا أمل فى الانتقال إلى الضفة الشرقية ، ارتسم على وجهه اليأس ، فـأشفق عليه جندى وتعاطف معه ، واقترح عليـه أن يتوجه لأقرب مستشـفى عسكرى ، ليتبرع بدمـه فاستراح لهذا الاقتراح ، وشعر أنه بهـذه القطرات قد عبر مع العابرين . . وتصادف وهو بالمستشفى أن سمع بيانًا بأن قـواتنا قد أتمت عبورها بسلام ، فعاد إلى قريتـه يحمل فى صدره أحـاسيس متـضاربة ، منهـا الفرح بعبـور القوات والحزن لأنه لم يكن من بين الجنود الذين عـبروا ، والأسى لكونه لم يحقق حلمه بالثأر من هذا القائد الذى فعل به ما فعل .

٣٢

بعدما عـاصر الديب عبور ٧٣ ، إلى أن انتهت الحرب ، وبعـد انتهاء مدة خـدمته ، وعـودته إلى قريته ، اعـتاد السـفر خارج البـلاد وكان من اللافت للانتباه سفره الخاطف الذى لم يستغرق أكثر من أيام .

انتبه المفسرون ، وما أكثرهم خصوصًا ، وأن القرية صغيرة المساحة ، وأقل شىء يظهـر بها يسـرى بين الناس ، وطرحت الأسـئلة ، وعلامـات الاستفـهام ، بعد ما بدت عليه مـلامح الثراء ، فقد تعود بعـد كل سفر ؛ شراء جزء من مـركب ، وسرعان ما يضم باقى الأجزاء ؛ ثم يـعلن ملكيته للمركـب ، وتكرر هذا ، ومع تكراره تكثر عـلامات الاستـفهـام ، كانت الأسئلة ، تتداول بين الناس ، دون أن يجرؤ أحـد منهم على سؤاله مباشرة إلا «إمـرية» ولما سأله . . ، أجـابه أنه أصبح من رجـال الأعمـال ، ولأن «إمرية» لم يعد هو «إمرية» فلم يناقش مـا قاله الديب مكتفيًا ، بالاندهاش الذى بدا على وجهه ، وعلى غـير هدى ، ودون أن يقصد وجهـة معينة ، إلا أنـه يقطع الوقت الذى أصـبح يسـاوى ثقل آلامه فـيحـمله كل يوم ،

ويسـير ليطلق خـياله في اللانهـائى ، يرسم الأمنيات ، ويبنـى الأحلام ، وسرعان مـا ينطفىء ، كل هذا ويعود إلى واقعـه محاولاً التعـايش معه ، وبينما هو سائر ، وضعت يـد على كتفه فهبط من سمـاء خياله ، والتفت خلفه ليجد الديب الذى فاجأه بقوله :

- إنت ح تسافر معايا السفرية الجاية ؟

لم يصمت إمرية كثيراً وسأله :

- إلى أين . . ولماذا . . أنا ؟

- لأنك ذراعى اليمين . . وإلى أين . . إلـى كل الدنيا . . أى مكان يخطر ببالك . . فأنا الآن أجوب كل أنحاء العالم . . مش قلت لك . . أنا رجل أعمال .

كرر عليه سبب سفرياته . .وطلب منه تفسيراً لما يقوله الناس لم يبد الديب أى اهتمام لما يقـوله «إمرية» ولم يفسر له أو يفـصح عن أى سبب لكنه أكد على سفره معه السفرية القادمة والتى لم يبق عليها غير أسبوع . . !!

٣٣

انطلق «إمرية» إلى حيث يريد ، دون تعليق ، ودون أن يبـدى موافقته على السـفر ، لم يهـتم الديب بهذا ، وكـأنه على ثقة من أنه فى النـهاية سوف يحصل على ما يطلبه من «إمرية» أحس «إمرية» برهبة تهز نفسه ، ما هذه السفـريات الغامضة ، والتى تعـود على صاحبهـا بكل هذا الثراء لابد وأن يكون وراءها ما يـخيف ، وامتـزجت الرهبة بالرغـبة فوضع إصـبعـيه ليصم أذنه ، وكأنه لم يسمع مـاتردده الناس ، وثبت يقين الديب ، وسافر معه «إمرية» ، لم يكن يعرف أن هناك مفاجأة فى انتظاره ، وكان الديب قد

استفسر عن إمكانية إجراء عملية زرع عضو ، وتكلفة إجرائها ، وفور وصولهم وجد «إمرية» نفسه أمام إجراءات التحاليل ، لم يستوعب أنها الحقيقة ، وظل مأخوذاً حتى أنه لم يبد موافقة ولا رفضًا ، وبقى طول فترة إعداده لإجراء العملية كأنه فى غيبوبة ، يتحرك وفق ما يحركونه وينتقل وفق ما يريدون ، والديب يتابع كل ما يدور من بعيد وكلما اتجه نظر إمرية ناحيته تحول بنظره بعيداً ، كأنه يريد ألا يفيق «إمرية» من غيبوبته إلا بعد إجراء العملية حتى لا يتراجع كما سبق مع أهل القرية .

لم يمض سوى يومين ، وأفاق «إمرية» من غيبوبة المخدر ، أفاق تحسس موضع العملية ، وانتابته نوبة من الفرح ، وكأن الديب قد غسل نفسه من مرارة الشعور بفقدان رجولته ، وظل بين الحين والحين يتحسس الموضع حتى أن الديب لاحظ وقال له . . . لا تخف ، لم يعد أحد يأخذه منك بعد الآن .

بعد ما هدأت مشاعره بالفرح داخله ، وتسلل الاطمئنان إلى نفسه ، سعى ليعرف من العاملين بالمستشفى تكلفة العملية والإقامة ، وبالإشارات المتبادلة له تعرف أن المبلغ آلاف من الدولارات ، وعرف معه سر هذا الاهتمام الذى يلاقيه منذ أن أفاق ووجد نفسه فى مكان أشبه بالخيال ، لا يكون إلا فى الأحلام لنظافته ، وفخامته ، وعناية العاملين به والعمل على راحته وتسابق الجميع فى هذا ، أيقن أن تكون التكلفة غالية ، ولما عرف هاجت الأسئلة ، وتزاحمت فى رأسه ، وعجز عن الإجابة ولم يأت الديب لزيارته منذ أن اطمأن على إجراء العملية .

فقد انشغل به منذ أن جاءوا من القرية ، والآن عليه أن يمارس عمله الذى لا يعرف أحد عنه شيئًا ويبدو أنه عاد إلى البلد ، فقد ترك إلى إدارة المستشفى ما يفيد أنه مسافر ، حتى إذا سأل عنه إمرية أبلغوه أنه سوف يعود

بعد أسبوع ، وطلب ألا يعرف إمـرية إلا إن سألهم ، وإمرية لم يعد قادراً على تحمل تزاحم الأسـئلة فى رأسه ، لم يعد يحدث أحداً حـتى العاملين بالمستشفى لعدم مـعرفته لغتهم ومعرفتهم لغـته ، ظل التعامل بالإشارات ، وعليه أن يجيد الإشـارات ، فقد عانى الكثير لما حاول معـرفة تكلفة إجراء العملية والإقامة حتى الإشارات لم يفهمها .

تمنى «إمريـة» لو سأله أحد عن سـبب قطع هذا العضـو ، حتى يثـير قضية الأسر ، وتعذيب الأسـرى وأنه كان من بين الأسرى ، وما حدث له إنما هو انتقام أمام الأعداء ، رغم الإعلان عن الهزيمة والانسحاب ، وبرغم تزاحم الأسئلة فى رأسه ، ظل يسأل نفسـه ، كيف يفسرون قطع هذا العضو ، أهم يتهمونني بشىء ؟ ! أم لا يـعنيهم إلا الحصول على الدولارات ، وإذا عرفوا أن السـبب هو مقاومتى للأعـداء ، هل كانوا يتقاضون كل هذه المبالغ ، ربمالو عرفـوا لاختلف الأمـر ، وأجروا العـملية بدون مقـابل ، ولكن من يدرينى أنهم لو عرفـوا بدلاً من التعـاطف معى، حاولوا تدمـيرى ، فلكم سمـعت أن أهل هذه البلاد يتربصـون دائمًا بوطنى . . . ، وطنى الذى لم يتم لى إجراء العملية حتى بالمقابل .

أسئلة عن لماذا تحمل الديب كل هذه التكلفة ، وأسئلة عن كيف يفسر الغرباء أسباب ما هو فيه ، وبين حيرته وأسره لهذه الأسئلة ، تذكر المقهى واشتياق إلى القمر ، وأهلها وأنفاس الكيف والسير طوال الليل بلا نهاية وغابت ابتسامته وانزوى فرحه بعيداً ، ونسى تحسسه لعضوه ، وأنه أعيدت له رجولته .

بالإشارة فهمت إحدى الممرضات أنه يرغب فى سماع الراديو أحضرته له ، وهو يدير المؤشر سمع فيروز تغنى (يا قدس . يا مدينة الصلاة) .

ظل يشاور لهن ، ويومئ ، يود أن يعرفهن أن مما أصابه كان من أجل ما تقول فيروز ، وهو يشير إلى موضع العملية وإلى الراديو ، وهم يذهبون

بفكرهم إلى غير ما يقصد متـصورين أنه يسأل عن استطاعته الزواج ، فهم لا يفهمون ، غنى مع فيروز . .

- (إليك يا مدينة الصلاة أصلى) .

- والله يجازى اللى فكرنى بالأحباب .

- يا جاى من مصر هاتلى من ترابها حجاب . . . ،

وخرج إلى الشرفة فقد اعتاد بعدمـا استعاد قدرته على الوقوف والسير أن يقف بالشرفـة يرقب اغتيال النهـار على يد الليل ، ويظل حتى ، ويظل حتى يصبغ اللـيل ، كل ما حوله بلونه ليعود إلـى فراشه ، والأرق الليلى الذى تعود عليه منذ أن وقع فى الأسر حتى بعـد ما عاد لم يفارقه الأرق ، وينقبض قلبه كلما استشـعر دبيب الزمن رائحة الموت تقترب منه ، فكر فى أن يرتدى ملابسه ، ويخرج حتى ولو لم يسـأله أحد إلى أين ، فسأل نفسه إلى أين ؟ هو لا يعرف لغة من يقابله ، كل الدوائر مغلقة . . .

أصبح رفـيقًا لانقـباض الصدر ، وظل الغـرفة حتـى تمنى أن يتوقف الزمن ، وينتهى بدلاً من الملل والموت البطىء ، مـرت الليلة طويلة ، كأن الصبـاح خاصمهـا ، ومع بزوغ الشروق ، عاد إلى الشرفـة . . ، كان فى قـريته دائـم الحرص على مـشـاهدة بزوغ الخـيوط الأولى فـى الصبـاح ، ومشاهدة ساعات الغروب ، ومن بدء الـشروق حتى الغروب ، كان العمل الدؤوب والصعود والهبـوط بين المراكب وانتظار الأولاد ، حتى يعودوا بعد بيع حصتهم من الأسـماك ، واليوم يتسلمه النهار ليـسلمه الليل نهار طويل وليل طويل ، وغروب يـعكس لونه على كل شىء ، حوله ليـصبح كلون رمل سيناء .

٣٤

(الديب لتقسيم الأراضى)

(الديب لتجهيز السفن)

. . . .

منذ أن اقترب وصوله إلى القرية ، وهو يشاهد اللافتات المعلقة ، بين كل لافتة ، وأخرى . . مسافة قصـيرة كان يقرأ اللافتة ، وينظر نحو الديب الجالس بجواره ، وبدون تعليق ، يبتسم الديب فـيتأكد «إمرية» أنه هو «ديب» الأراضى ، وتجهيز السـفن بهره الضوء المسلط على اللافتات ، والذى حول بسطوعـه مساحة كبيرة حـول كل لافتة ، إلى ما يشبـه النهار ، لم يسأل إلا عن هذه الأنوار وسطوعها ، ولونها الساطع البياض والمخالف للون نور القرية ، تعود على لون نور القرية المائل للإحمرار حتـى لو أضاءها فى مناسبات الأفراح أو المآتم وازداد عدد مصابيحها مائة مرة ، لم يتغير اللون بل يزداد احمرار لون القرية .

اعتاد الديب أن يسمع له ولا يجيبه .

واعتاد «إمرية» أن يسأل دون انتظار الإجابة ، أوقف السـيارة أمام عتبة البيت ، وخرج «إمرية» وخرجت أمام البيوت النسوة والأولاد يرقبون نزول «إمرية» الغائب عن القرية ، أكثر من شهرين . ولا أحد يعرف عن غيابه شيئًا .

تجمعت الأولاد ، وافـترشوا الأرض أمام بيته ، وهو ينظر منتـشيًا ، ويلوح بيده للنسوة ، ويشـارك الأولاد تهليلهم حاول الجميع معـرفة سبب غيابه ، أسكتهم الديب ثم قال :

- «إمرية» عـمل العملية وأصبح صـاغ سليم كأنه خطف البسـمة من على وجـهـه نكس راسـه ودخل البـيت تاركًـا الأولاد والنسـوة ، وبعض الرجال الذين تواجدوا لحظة وصوله ،تمتم كأنما يحدث نفسه .

- ده اللى توقعته ، ويا عالم باللى جاى ،

نظر خلفه يبحث فى الوجوه عن رد فعل ما قاله الديب .

أحس الجميع حتى الأولاد الصغار . . أن شيئًا أصابه ؛

انصرفوا وساد الصمت المكان .

٣٥

ازدانت القرية بالأنوار ، ومناديل الزينة ولافتات الترحيب ، وإعلانات عن افتتاح مجموعة شركات الديب والتى اختار مركزها الرئيسى بقلب القرية حتى يؤكد أنه لن ينفصل عنها ، وتنوعت عبارات الترحيب التى تشير إلى أن المحافظ على رأس المشاركين فى افتتاح مجموعة الشركات .

تلألأت الأنوار التى امتزجت بمياه البحر فحولته إلى نهر من الفضة ، وكان الديب قد اختار أن يكون الاحتفال على ظهر اليخت ؛ فتحولت مراكب الصيد المرابضة على شاطىء البحر إلى كرنفال من الأنوار الملونة ، وانطلقت تتراقص بطول البحر وعرضه ، وأصوات تزغرد ، وتحرك اليخت الذى يحمل على ظهره المحتفلين يتقدمهم المحافظ ، واليخت يتهادى فوق سطح الماء ، وكأنه جبل من الماس يتحرك ، والمراكب من خلفه ومن أمامه ، انطلقت الموسيقى عزف الألحان الراقصة والمضيفات اللاتى اخترن بعناية فائقة فقد انبهر بهن المحافظ مما جعله يثنى على الحفل وهو الذى عود الجميع أنه لا يعجبه شىء .

قال الديب :

- هذا الحفل من النوع المختلف والطعم المختلف .

انتظر الديب هذا اليوم طويلاً ، فأعد له وأحسن الإعداد .

والآن المحافظ يجلس بين الناس والجميع يشاهدونه .

وهذا ما صنع من أجله الكثير .

أحضر إمرية مـوقد الفحم المشتعل ومجموعـة من «التراجيل» المختلفة الألوان وأقسم الديب الذى جلس بجواره أنه أحضر هذه التراجيل ،اختارها بنفسه من أجل هذا اليوم ، واختصه بإحضارها ، وأنه اختارها لأجله فتذكر المحافظ يوم مروره ، وصادف الديب أول مرة . . ، يومها أقسم له أنه أعد اليخت من أجله ، تبسم ، وهو يهز رأسـه ، وقرأ الديب على وجهه عدم تصديقه لما يقول همهم لإمرية أن يقول شيئًا .

أصلك وش السعد على الجميع ، وخصوصًا على الديب .

- ده إمرية أحد جنود «٦٧» ، اللى خسر كل حاجة حتى . . . ؟ !! ، وأنتم جنود «٧٣» اللى كسبتم كل حاجة حتى . . . ؟؟ !!

- إمـرية من اللى تم أسـرهم فى الحـرب واللى أحد قـادة العـدو ، أشرف على تعذيبه ، حتى أنه قطع عضوه ، بس أنا أول ما أنهيت تجنيدى ، كان معايا فى أول سفرية ، وأنفقت على العملية بالكامل .

وشرح لكل الموجـودين ، كيف كانت صعـوبة العملية وكـيف كانت التكلفة باهظة ، حتى «إمرية» لم أحاول أن أعرفه قيمة التكلفة .

وإمرية وضع رأسه فوق الموقد الملتـهب ، وهو يشعر أن.ما بداخله من ألـم أصعب من إحساسه بلهـيب الموقد ، وتحولت باقى الليلة إلى سمر عن قطع العضـو ، وتولى الديب سرد الحكاية ، كـأنه هو الذى أصيب ، وبين

جملة وأخرى يقول ، أصل «إمرية» اختصنى فقط بهذا السر دون باقى القرية ، تفرغت إحدى المضيفات لإعداد «النرجيلة» التى اختص بها الديب المحافظ ، وكلما أحرق حجراً قامت الأخرى بتغيير الماء ، وتنظيفها ، تسابقت المضيفات للعمل على راحته ، حتى أن واحدة منهن فقط ، كانت تخدم المدعوين والباقيات تفرغن له . وتفرغ الديب لمتابعة انفعالاته التى كثيراً ما كانت تبدو على وجهه .

ولأنه الديب فقد عرف كيف تكون هذه الانفعالات منصهرة مثل انصهار الفحم فى الموقد ، وعمل على هذا طوال الليلة فهو الصيد الذى انتظره طويلاً .

انتهت الليلة دون أن يلتفت أحد لصمت إمرية ، فقد أخذ جانبًا بعيداً عما يدور حوله . وجلس فى آخر اليخت ، بعدما كان يشارك الجميع ، ويرحب ويتبادل معهم القفشات ، «أمال لو كنت بقيت زى ما قلت . . أصبحت خلاص صاغ سليم . . دانا وأنت اللى عارفين إن حتى الباقى من العضو كمان إتشال ، وحاولنا نخبى على كل الناس والكل مصدق إنى زرعت العضو وإنت عارف ، وأنا عارف إن لا عضو انزرع ولا سابوا الباقى ، بتحلل فى فلوسك ولا بتموتنى .

لو كنت بقيت على قوله رجعت لىَّ رجولتى كان يمكن عرانى وفرجنى لكل عباد الله فى كل الدنيا وقال أهو ده بفلوسى ،

آه حب الوطن فرد عليا . . أفديه بروحى وعنية .

لم يسأل أحد عن سبب ابتعاده ، ولم يلتفت الديب لهذا فقد تعوده ، انصرف الجميع إلا إمرية ، ظل باليخت يحاول النوم . استلقى على ظهره ، وضوء القمر يحيطه حتى اقترب الفجر ، فسمع أصواتًا تأتى من البحر ، ارتعد خوفًا ، فظن أن هذه الأصوات لعرائس البحر التى كان يسمع عنها

في الحواديت ، انكمش داخل نفسه وحبس أنفاسه محاولاً اختلاس النظر نحو اتجاه الأصوات ، وكان القمر يفرش بضوئه مياه البحر فوقع بصره على إحداهن ، تخلع ملابسها حتى أصبحت عارية تمامًا .

بدأت تحضن بكفيها الماء ، وتصبها على جسدها وعلا رأسه قليلاً ، فوجد أكثر من واحدة تجلس على الماء وتغتسل ، التى ترفع ثدييها وتغسل بينهما ، والتى تغسل بين فخذيها ، والتى تصب الماء على رأسها ، والتى ترقد بوجهها على الماء ، وتفرد طولها ، فتحملها بطنها ويهزها الماء ، فتظل تعلو وتهبط ومؤخرتها طافية أمامها ، حتى هذه اللحظة كان يظن أنهن عرائس البحر إلى أن خرجت فأخفى رأسه ، ولما وقفن حتى لا ينكشف لهن ، وسمع ما يدور بينهن . . حديثًا هامسًا وهن واثقات بعيدات عن رؤية أحد ، ولا يسمع أحد صوتهن وهن يحكين عن ليلتهن مع أزواجهن ، سمع ما سمع من حديث دار بينهن عن هذه الليلة ، وتأكد أنهن ليسوا عرائس البحر كما كان يظن ، وعرف بعضهن لما وقفن وكن عاريات ، انصرفن إلى بيوتهن ، أما هو فظل يرقبهن فى ضوء القمر حتى اختفين ، مر الوقت عليه وهو مذهول مما شاهده الليلة ، أغرب من الخيال . . ، هو الذى لا عمل له إلا التنقل من مركب إلى مركب صاعدًا وهابطًا لم يكتشف أن نسوة القرية يغتسلن كل ليلة فى البحر ، الواحدة منهن إذا مشت بالقرية . . سال لعاب الشيخ قبل الشاب لجمالها ، وعودها الممتلىء وخطوتها التى تشبه خطوة البطة كلما حركت جسدها الليلة ، هى كيوم ولدتها أمها . . ، حتى التى لا تظهر على أحد إذا زار زوجها أحد ، أو جاء يسأل عنه ، ترد من خلف الباب ، هى التى كانت تطفو على وش الماء ، ولا يظهر منها غير مؤخرتها وإذا انفردت على ظهرها ، لا يظهر منها إلا ثدياها ، لغرابة ما شاهد ، ظن أنه يحلم فقرص خديه وفخذيه وتمنى لو كان هذا حلمًا .

٣٦

فى اليوم التالى لحفل الافتتــاح ذهب الديب ، ومعه «إمرية» إلى المحافظ ليقدم له الشكر ، وحمل إمرية الهــدية ، كانت هذه المرة صغيرة الحجم . . مثل حجم باكو البسكويت ، ومغلفة بعناية فائقة حتى لا يعرف أحد كونها ، حتى المحافظ بعــدما صافحه الديب ، وأعطاه الهدية ، ظهــرت على وجهه علامات التعجب ، لكنه لم يسأل إمــا من باب اللياقة ، أو حرصًا على ماء وجهه ، بدا إمرية يسأل كعادته وتركه الديب دون إجابة كعادته أيضًا .

- هذه الهدية صغيرة الحجم - ثمينة القيمة - وإلا إيه ؟

- أكيد سبيكة ذهبية ، مــا هو السفر السريع صاحب العائد الــسريع ، لا يمكن يكون إلا من أجل الذهب وطبعًا الذهب ألوان . . . ، أسود . . . ، بنى . . . ، أبيض . . . ، وأصفر . .

- اللى هو الذهب الحقيقى . . . ، أكيــد الهدية دى ذهب حقيقى أنا عارف إنى ســأظل أتكلم مع نفسى ، ومــع الآخر لن أفهم شــيئًــا ، فاهم حاجة مثل كل مرة . . .

لكن أنا شايف حجم الهدية ، لا يدعو لحضوره معاك ، هو أنا جئت معاك ليه ؟

- بعد كده أنا لن أكون فاضى ، وإنت اللى ح تقوم بتوصيل الهدايا .

وهو لازم من الهدية . . ما أنت خلاص ما بقتش فى حاجة لتقديم هدايا .

عاد الديب إلى صمته وتركه يقول ما شاء ، وشغل نفسه بعيدًا عنه . انتبه إمرية وقال له :

- حتى لو لم ترد على هذه الأسئلة المطبقة على صدرى ، وأحس أن عليه أن يختــار إما أن يعمل مع الديب أو يتركه . وهل له أن يتركــه بعدما

فعل معه ما فعل ، هو دائمًا يشعر أن عليه دينًا ثقيلاً ، لابد من سداده ، ولو كان هذا الدين هو لمجرد المحاولة ، وأن ما قام به الديب من أجله إنما هو طوق يضيق على رقبته فيخنقه ، وعليه أن يعمل ولا يسأل أما الديب إذا أحس باختناق ، إمرية . حاول ملاطفته بالمداعبة ، ليظل محتفظًا به فقط ، دون الإجابة على أسئلته .

٣٧

أخذ المحافظ يتردد على سهرات اليخت ، وكان قد أبدى إعجابه بجرأة الديب بعدما عرف نوع الهدية ، وهنأه على هذه الجرأة ، أجابه الديب . . . أنه لا يطمع فى شىء إلا فى منحه ثقته ، ازداد المحافظ انتعاشًا وظهرت على قسماته علامات الارتياح والبهجة ، طلب من الديب ألا يفرط فى المضيفات وألا يتوقف اليخت عن التحرك ، حتى يجوب البحر طولاً وعرضًا ، وقال أن سر تردده على اليخت هو استمرار تحركه وعدم وقوفه فى مكان واحد ، وإمعانًا فى العمل على راحته ، أعد له الديب مكانًا يستطيع أن يستلقى على ظهره طول السهرة ، حتى لا يشعر بأى ضيق ، وبهذا يطول السهر حتى يقترب الفجر ، وكما اعتاد المحافظ التردد على اليخت لقضاء سهراته ، اعتاد إمرية البقاء به حتى يشاهد نسوان القرية وهن عاريات يغتسلن بماء البحر وتمنى لو حرك اليخت كل ليلة إلى مرسى آخر ليشاهد النسوة فى كل مرسى فهو الآن أصبح متأكدًا أن نساء القرية جميعهن يغتسلن بماء البحر ، كل منهن فى ناحية ، لأن جميع البيوت تبدأ إقامتها على شاطىء القرية ، وتمتد إلى داخلها وطول الشاطىء مقسم إلى عدد كبير من المراسى .

٣٨

كانت الشمس قد أطلت ، وافترش لونها الفضى البراق أسطح المنازل ، ونسجت خيوطها لتلهب وجوه الصيادين الذين عادوا بمراكبهم من سفرها البعيد ، شاهدها «إمرية» تصطف الواحدة بجوار الأخرى على شاطىء البحر ، تمنى لو صعدها ، ومارس ما كان يمارسه مع الصيادين ، يصعد المركب ، ويهبط كيفما شاء ، يداعب هذا أو ينهر ذاك حتى يحصل على نصيبه من السمك ، منذ أن عاد من الأسر وحرم من هذا العمل ، كانوا يأتون إليه بنصيبه إكرامًا لدوره البطولى إلى أن عمل مع الديب ، أصبح الجميع ينظر إليه على أنه ذراعه اليمنى ، وأنه من الأغنياء .

٣٩

استوقف نظر العايد مسئول الأمن حضور إمرية المتعدد للمحافظ ، واهتمامه باستقباله كما سبق ، واستوقف نظره .

استمرار تردد عباس حسونة عليه وحظوه بنفس الاهتمام ، وما فعله مع عباس حسونة فعله مع إمرية ، حاول التعرف عليه والاهتمام بحضوره ، وحرص على استضافته كلما جاء حتى وإن إمرية ظن أن هذه تعليمات المحافظ ، ولما أحس العايد بهذا . . أبدى استياءه وقال له :

– أنا أحب الرجالة ، وأحب أتعرف عليهم ، مش كل حاجة لازم تكون بالأوامر .

شعر إمرية أنه أهانه وأكد له شعوره بالذنب لما أحضر مع هدية المحافظ ، هدية العايد .

عرف إمرية بعد ذلك نوع الهدية ذات الحجم الصغير من خلال تأكيد الذيب على أنه لا يسلمها إلا في يد المحافظ وفي عدم حضور أحد ، وتعلم إمرية الدرس جيداً ، فكان هذا سر اهتمام المحافظ بلقائه ، أما هذه الهدية فهي غير الهدية . . صغيرة الحجم ، وكان لابد من توصيلها إلى البيت ذهب معه العايد واستقبلتهم «شوق» وعرف أن المحافظ خارج البيت ، قدمت لهم الشاي ، وجلست معهم ، فهي منذ أن تعرفت على العايد يوم أن أذهب عنها الخوف من هذا العمل وهو يوصلها إلى هذا البيت ، وهي تحس نحوه بالارتياح ويبادلها نفس الإحساس أما إمرية فقد بهره جمالها ، وعودها الفارع ، تمنى في نفسه لو تكون من نساء القرية ليشاهدها عارية . . ؛ تغتسل في مياه البحر ، وبقدر ما كان يكره قيامه بتوصيل الهدايا لأنه كان يتذكر الجيش وعساكر المراسلة ، وما كره شيئًا في حياته بقدر كرهه لهذا العمل ، إلا أنه من الآن أحب أن يحمل الهدايا يوميًا ليرى شوق - التي تختلف عن نساء القرية اللاتي شاهدهن عاريات .

٤٠

رفض العايد قبول دعوة «إمرية» زيارة قريته بحجة أن عمله يمنعه من ذلك ؛ خصوصاً وأن شخصية رسمية مثل شخصية المحافظ ، كثيراً ما تذهب إلى القرية ، أكد له إمرية أنه يمكن حضوره دون أن يعرف أحد من أهل القرية ، أنه يعمل مسئول أمن ، وأنه ممكن يكون مجرد صديق ، ووعده ألا يعرف الذيب بهذه الزيارة وأنه إذا حضر سوف يجعله يشاهد سهرة من السهرات التي تظل حتى اقتراب الفجر على ظهر اليخت .

شاهد العايد المحافظ تتبعثر مـنه هيبته تحت أقدام الراقصات ، شاهده يخلع عن نفسه كل شيء ، حتى أنه وقف بين الراقـصات ، والمضيفات لا يرتدى إلا الملابس الداخلية .

شاهد العايد مجموعة النراجيل مختلفة الألوان ، ومجموعة المضيفات حـوله ، كل منهن لهـا دورها ، التى تقدم له المأكـولات والتى تغير مـاء النرجيلة ، والتى تعـد الحجر ، وتضع الفحم المتوهج ، والتـى تنظف مبسم النرجيلة ، بعد كل نفس بشدة ، وصـعق العايد بما شاهده ، وانسحب قبل أن يغشى عليه ، لم يتركه إمرية وصاحبه ليعرفه على معالم القرية ، وأوقفه أمام لافـتة من لافتات الذيب لتـقسيم الأراضى ، وظلا يأتيـان ويذهبان ، يوغلان فى الابتعاد عن اليخت ثم يعودان يتوقفان أمام مياه البحر .

يشاهدان ضـوء القمر ، ويحكى إمرية عن أيام الجـيش وأيام الأسر ، وأيام العـملية ، يحكـى والعايد يشـاهد المراكب ، وهى تفـرد أشرعـتهـا استـعدادًا للسـفر وتتمـايل رأسه مع تمايل المراكب وألوان الـنور الخافت ، والمنبعث من كل مـركب ، كان كل واحد من أصحـاب المراكب ، قد تفنن فى أن تكون ألوان الأنوار فى مـركبة مـغايرة لأية أنوار فى مـركب آخر مما جعل لون ميـاه البحر ، وهى تموج مع حركـة استعداد المراكب بتحـركاتها وانطلاقها لوحات مـختلفة الألوان والجمال ، فى لمح البصـر ، يختفى كل هذا بعد انطلاق المراكب ، واختفائها عن الأنظار .

٤١

تنبه إمـرية أن العايد لا يستـمع إليه ، وهو الذى لم يصدق نفـسه أن وجـد أحدًا يسـمع له ، لكنه هذه المرة ضـحك بصوت عـالٍ ، مما أدهش العايد ، وأذاب إمرية دهشته بقوله . .

- أنا تصورتك معايا، وسامع كل اللى بقوله لك ، لكن لقيتك بعيد ، زى كل اللى بحاول أتحدث معاهم ، إنت كنت بتشاهد المنظر الجميل ، أما الباقى فلا يسمع لىّ ، حتى لا يشغل نفسه بما أقول .

استرخينا على ظهر أحد القوارب المربوطة على شاطىء البحر ، والتى تقوم أثناء النهار بنقل أهل قريته إلى الشاطىء الآخر لم يتركه أحد ممن يمر عليهم ، إلا وسأل «إمرية» عن سبب تركه اليخت ، أعادوا تجولهم إلا أن برودة هذا الليل راحت تسرى فى الجو ، وبدءا يشعران بها ، وكل ما شاهده العايد لم ينسه ما رأى على ظهر اليخت ، أنهى صمته الذى لازمه مع اندهاشه لما شاهده من تناقضات .

- ربك يلطف ويصرف ويزيح .

وظلت نظراته الشاردة تجوب البحر ، كأنه يبحث فيه عن شىء ضائع ، وأصبح مستحيلاً الحصول عليه ، وإمرية يشاركه أحيانًا شروده ، وأحيانًا يحدثه فى أشياء يعلم مسبقًا أنه غير سامع له .

٤٢

تلك هى المرة الأولى التى حاول اعتصارها بين ذراعيه وضمها إلى صدره بكلتا يديه ، ثم تركها قبل مقاومتها كأنه استيقظ انصرفت مسرعة إلى حجرتها قبل أن تكمل إعداد العشاء . اعتادت إعداده . بحجرة الأنتريه ، حسب طلبه ، فقد طلب أن تعد له العشاء كل ليلة فور وصوله من قضاء سهرته ، وعليها انتظاره ، مهما تأخر ، وقال إنه يجب أن يشاهد بنفسه إعداد عشائه وطلب أن يعد على منضدة الأنتريه تلك هى المرة الأولى ، تشاهده بملابسه الداخلية كل ليلة ، وهى تعد العشاء يقف خلفها ، حتى

أنها كلما انحنت لتضع ما بيدها على المنضدة ، ورفعت قامتها وجدت نفسها ملتصقة به ، لم يهمس أو ينطق أو حتى يحرك يديه اللاصقتين بجسمه ، وكأن وقوفه غير مقصود ، وأثارت هذه العادة وتكرارها مخاوف شوق وشكوكها ، أخفت مخاوفها حتى لا تثير فى نفسه أكثر من مجرد الوقوف خلفها ، حتى هذه المرة لم ينطق بشىء ، أو يجبرها على إتمام عملها ، أغلقت حجرتها ، وأخذت تسترجع مرات وقوفه خلفها وجرأته على ذلك ، كلما تشككت فى نيته ، وإلا لماذا لا يتجاوز مجرد الوقوف ، وتسأل نفسها ولماذا الوقوف ، ويغلبها النوم ، فهو دائم التأخر فى سهراته .

تلك هى المرة الأولى ، تخاف النوم رغم إغلاقها حجرتها بعناية ، بل النوم هو الذى يخاف الاقتراب منها حتى لا يغلبها ، وحاصرتها الشكوك ، واستولت عليها ظنونها ،

ظلت ليلتها تدور بين جدران الحجرة ، تسند رأسها على حوائطها تتخيل المجهول ، تدور رأسها وتسقط فوق صدرها .

- أهذه حقًا نيته ؟ ! ، يمكن لمثله أن يقدم على ذلك ؟ هل بدا منى إثارة ؟!

أنا ككل الليالى ، أعد العشاء ، وجسدى يكاد يسقط منى لحاجتى إلى النوم ، منذ مجيئى للعمل ، لم أشاهده ليخلع ملابسه إلا الليلة ، كان يظل كما هو حتى أعد العشاء وانصرف فما الذى دعاه لخلع ملابسه ووقوفه بملابسه الداخلية .

- إيه اللى بيحصل أو إيه اللى حصل ؟

تكومت على فراشها ؛ ووضعت رأسها فوق ركبتيها تبكى حالها وخوفها ، انطفأت نظرات الأمل فى عينيها ، فمنذ أن عملت واستقرت ، وشعرت بالراحة ، كان إذا زارها أحد من أهلها ، حدثيه عن أنها تعمل

مع المحـافظ ، وترفض أن تقـول أنها تعمل عند الجاه والهـيبة ، أوعز لها ألا تفكر فى أن تكـون هذه نواياه حـتى وهو يقف خلفـهـا ، وإذا وقـفت وجدت نفـسها ملتصـقة به ، تلك هى الليلة التى أحـبت فيها ، مـا كانت تظن أنه مات داخلها ، تتحسس فراشهـا تفتش عن زوجها ، تتذكر ما كان بينهمـا ، فلولا موته ، ما كان وجـودها فى هذا الفراش ، كان عبـاس قد اعتاد بعدمـا شعر بارتياح العايد كلما سمع اسم شـوق أن يتحدث عنها فى جلساتهم ، حتى أن العـايد هو الآخر ، تأكد مما يقصده عـباس ، وأصبح يدعبس فى داخله ، كى يعرف كل شىء عنها .

قال له عباس :

- إنها تزوجت قـبل زوجها الذى مات ، وعـاشت مع الزوج السابق ثلاثة أشهر ، وأن هذا الزواج ، ظل حديث الناس صغاراً وكباراً فى القرية .

قال عباس :

- أنا ح أحكى لك الحكاية ، لكن حاول أن تسمعها .

- يعنى إنت عايز تقول لىّ إن شوق ممكن تحكى الحكاية دون أن تخجل .

- تخجل من إيه ، دى بتتباهى وتتفاخر كل ما أعادتها وتزداد ابتهاجًا ، لو حد طلب منها أن تحكى له هذه الحكاية .

- مع أن مثل هذه الحكايات ، يجب أن تكون من الأسـرار أسرار إيه ، دا مافـيش طفل فى قريتنا إلا ويعرف ، دى الـولاد بيغنوها فى الأراضى ، وفى الشوارع زى بتوع السيما .

- وإيه يعنى اللى فى الحكاية ، يخللى الكل يهتم بها .

– قوة شوق ، وإصرارها ، وإزاى تتمسك بموقفها ، واستفاد العايد من هوس عباس ، وحبه للحكى ، وطمع العايد فى أن يحكى له عباس تفاصيل الزواج لثلاثة أشهر فقط ، ولماذا لم يستمر أكثر من ذلك ، وعباس يحكى له أن شوق كانت تحب الواد «واصف» وكل من فى القرية ، كان يعرف قصة هذا الحب . . !!

يمكن لو قلت لك مافيش راجل ، ولا ست ولا عيل ولا حتى شجرة فى القرية ، حتى حيوانات القرية ، كانت تعرف هذا الحب لأنهم لم يخفوا حبهم عن أحد و «واصف» كان بيعبدها ، وأهل القرية لما يئسوا من إبعادهما عن بعضهما تركوهما ، والأولاد كانوا بيتقابلوا عينى عينك بين النخلتين اللى فى وسط الطريق الموصل للقرية ، يعنى القادم إلى القرية أو الخارج منها يشوفهم ، ولما كان أى واحد من أهلها يعاتبها تقول :

– إحنا حبنا زى الشمس فى وضح النهار ، وزى القمر لحظة تمامه فى الليل .

وعجز الكل عن تفريقهم عن بعض حتى تقدم «واصف» يطلب يدها ، وفرح أهل القرية قبل أهلها لأن أهل القرية كانوا يخشون على أولادهم أن يسلكوا ، وأنا عارف أن مافيش فى القرية كلها بنت بقوة شخصية «شوق» ولا بجرأتها فى المواقف ، وكان الناس يشبهون بناتهم بشوق يعنى الأم تقول لبنتها ، روحى كده وإنتى عاملة زى شوق .

المهم ، الكل فرح بتقدم «واصف» لخطبة شوق ، ووافق أبوها وإخوتها ، وافق الجميع . . إلا خالتها . . ، وخالتها لو قالت لأ ، لابد باقى العائلة ح تقول : لأ .

لأنها عاشت حياتها بعد أن حرمت من الإنجاب ، تعتبر الكل إخوات شوق بمن فيهم شوق ، أولادها ، وكانت تنفق عليهم ، وخصصت لكل

واحد فيهم جزءاً من أملاكها ، وبكده كانت الآمرة والناهية فيهم ، ولما قالت : لأ الكل قال : لأ .

رفضت الخالة ، ورضخ الجميع ، ثم قررت الخالة زواج شوق من واحد غير واصف ، ورفضت شوق وأصرت على رفضها ، وحاول واصف ، وأصرت الخالة ، وبدأ الكل يرمى شوق بالأقاويل ، وصمتت شوق ، وتصور واصف أن صمتها ، رضوخًا ، وبعد فترة أعلن عن زواج شوق للعريس اللى اختارته خالتها ، ويوم زفافها ، كانت تسير كأنها شاة يزفونها يوم وقفة العيد الكبير ، كانوا يزفونها من ظهرها حتى انتهى العرس .

والكل تصور أن قصة «شوق» و «واصف» انتهت إلا أنه لم يمر أكثر من ثلاثة شهور ، وأعلن عن طلاق شوق ، وأجمع كل أهل القرية على أن زوجها لم يستطع الاقتراب منها طيلة هذه المدة التى قضتها فى منزله .. !!

كان الرجل يعرف ما بينها وبين «واصف» وعادت الحكايات والأقاويل ، وشعرت الخالة بأنه لا مفر من زواج شوق لواصف إلا أن المفاجأة كانت فى رفض «شوق» لـ «واصف» واحتار الكل فى أمرها ، وقابلها «واصف» لمعرفة سبب الرفض ، وكان الصمت هو الجواب ، حتى أن واصف لم يصدق نفسه ، ومرض لوقت طويل ، ثم سافر دون أن يعرف أحد مكانه ، وظلت صامتة ، تتلقى أقاويل الناس ، ونظراتهم حتى تقدم لها واحد من القرية ، ووافقت فى الحال على هذا الرجل ، وبعد الزواج ، أعلنت أنها رفضت واصف ؛ لأنها أقسمت ألا ينال منها هذا الزوج الذى فرضوه عليها ، ولما نفذت قسمها ،كان لابد أن ترفض واصف حتى لا يقال عليها أنها أخفت عارها فيه ، وهنا قبلت هذا الزواج ، كى يتأكد الجميع من أن حبها لواصف كان حبًا طاهرًا وشريفًا ، وأنها ضحت بهذا الحب حتى تثبت ذلك لأهلها ، وأهل القرية ، وعرف الزوج هذه الحقيقة ، فعشقها عشقًا يفوق الوصف .

وبرغم قصر مدة الزواج ، وبرغم رفضها الزوج عندما تقدم لها ، وبرغم إجماع الأهل ، والأقارب أن هذا الزواج لن يدوم ، إلا أن الزوج استطاع بعشقه لها ، تعميق هذا العشق فى نفسها فى فترة تركت العديد عن علامات الاستفهام ، حتى عند أقرب الأقرباء لهما .

ومات الزوج بعد أن غرس عشقه ورواه ، وعاشت هى ترعى هذا العشق ؛ لأنه عشق الشهيد .

٤٣

حرص منذ جاء على التجوال فى شوارع المدينة بسيارته ، كل صباح قبل الذهاب إلى مكتبه ، وسائق السيارة يطلق نفيرها كأنه يعلن عن سيره ، هذا الصباح لم يشاهد العايد شوق كعادتها ، عندما يحضر ليأخذ شنطة البوستة ، تعود ابتسامتها وحرصها على تسليمه الشنطة ، أشار لسائقه فى اتجاه المكتب ، علت الفرحة وجوه أصحاب الشكاوى لحضوره مبكراً ، شق طريقه من بين المصطفين ، وانطلق إلى مكتبه سريعًا دون أن ينظر نحوهم تبددت الفرحة ، وأيقن الجميع أن شروق اليوم لم يأت ، رغم سطوع الشمس .

اشتبكت جنود الحراسة بأصحاب الشكاوى فى محاولة لتفريقهم ، أوقف العايد الاشتباك ، وجمع الشكاوى من الناس محاولاً تهدئتهم ، أثار هذا دهشة جنود الحراسة ، ليس هذا هو العايد الذى تعودوه ، لم يتعاطف مع أحد من قبل ، أصدر تعليماته بعدم مقابلة أحد حتى إمرية الذى حضر ومعه الهدية ذات الحجم الصغير ، تعهد له العايد أن يسلم الهدية فى سرية كما كان يفعل هو . . فترك «إمرية» الهدية وانصرف .

عرف العايد نوع الهدية ، أعادها إلى ما كانت عليه ، تنبه أنه ربما يحمل هذا النوع من الهدية ذات الحجم الصغير ، فأسرع فى طلبه ،

لكن العايد هو الـذى حضر ووضع مـا بيده من شكاوٍ . . . ووضع فوقـها الهـدية ، انصرف العـايد فى صمت . . . وفى حـركة هادئة غـير عـابىء بنظراته التى ظـل يرمـقـه بها مـوزعًا تلك النظرات بين مـا وضعـه العايد على المكتب من شكاوى ، كانت الهدية ومن قصـده التباطؤ فى الانصراف من أمامه .

أكد الطبيب أن غيبوبة شوق نتـيجة لشىء إما تناولته أو أصابها ، ولم تفلح محاولات العـلاج ، هو يصر على عدم وقوف سيارة الإسـعاف أمام المنزل ، نقلها الـطبيب فى سيـارته إلى العناية المركزة ، حين جـاء الطبيب لتوقـيع الكشف على شوق . كـانت ماتزال مكومـة فى سريرها . حـملها العايد إلى سيارة الطبيب ، وهو يقول :

- إن هذه ليست المرة الأولى التى تهاجمها الغيبوبة ، لكن هذه المرة الأولى تستمر كل هذا الوقت ، كانت دائمًا تتغلب على ما بها ؛ حتى لا تتعرض لمهاجمة الغيبوبة لها . وكان يتحدث مع الطبيب . . كأنه العالم بكل خفايا شوق .

اندهش لما وجد «إمرية» مازال واقفًا ، وكـان قد تأكد أنه انصرف بعد ترك الهدية ، أخفى اندهاشه ، حتى لا يولد تساؤلات عند الطبيب .

٤٤

قـرأ بعناية ما وقع نظـره عليه فى التـقـرير اليومى للرأى العـام ، إن إشاعة تناقلت بين الناس ، وتبادلوا تـرديدها ، إنه يسهر كل ليلة فى عرض البحر على ظهر يخت اسمه «يخت الديب» الإشاعة تؤكد أن بعض مرافقى سهراته التقطوا له الصور ، وهو بين الراقصات والمضيفات .

حضر أحد المشايخ يطلب لقاؤه ومقابلته ، رفض كل محاولات الشيخ فى إقامة المولد هذا العام ، ورفض أى احتفال من أى نوع .

– قال له الشيخ :

– يقولون إنك من المحاربين والشيخ على الصياد كان أيضًا من المحاربين ، ما الذى يجعلك تتخذ كل هذه المواقف من شيخ مثل على الصياد .

جئت .. لا لأرجوك .. بل لأستوضح موقفك هل موقفك هذا من مشايخ الطرق ؟ ! .. أم من الشيخ على الصياد ؟ !!

وكعادته لم يهتم بكل ما قاله الشيخ ، ولا بالشيخ نفسه ، رغم علمه بمكانته لدى العامة والخاصة ، وباءت كل المحاولات بالفشل ، ولما لم يجد استجابة ؛

انصرف الشيخ وهو يردد :

– الضفتان هما الضفتان ، والبحر هو البحر ، هنا يصاب بالانزعاج ، أما هناك يحظى بكل اللهو ، ظل يهمهم ويتمتم ، وهو يطوى درجات السلم ، حتى خرج من المبنى ووقف أمام الضفة الثانية ، يشاهد الشيخ على الصياد على مرمى البصر ، وهو يطل من بين القوارب التى ترابض بجواره ، كان الناظر من هذه الضفة إلى الضفة الأخرى ، يخيل له أن مقام سيدى على الصياد يربض فى قلب النيل والقوارب بمختلف ألوانها تتزاحم لتجد مكانتها بين أحضانه ، نادى الشيخ على المعداوى ، كى يعدى من الضفة إلى الضفة .

ويرى المعدية بعيدًا عن المقام ، ظن المعداوى أن الشيخ يرغب فى السير حتى يصل إلى المقام ، لكن الشيخ طلب من المعداوى أن يسير بعرض البحر مغيرًا خط سيره حتى يصل إلى المقام ، والمعداوى يعرف من هو الشيخ ،

وبدون تعليق غير المعداوى خط سيره ، حتى نزل أمام المقام ، وتأكد الشيخ ، أن المقام بعيد عن الشط بقليل ، كأنه لم ير المقام من قبل .

وكأنه يبحث عن شىء فى نفسه ، وظل ينتقل من قارب إلى قارب بين فرح أصحاب القوارب ، فهو يبارك قواربهم وبين اندهاشتهم ، لأنه كالغائب عن الوعى .

انحنى على ظهر أحد القوارب ، حتى طالت يداه مياه النيل ، توضأ ثم اندفع نحو المقام وظل يصلى .

وبينما وهو يصلى ، تعالت أصوات الناس خارج المقام ، تتبادل التهانى ، كان صوت المذياع فى مستهل نشرة أخبار الساعة الخامسة ، يعلن قرار إقالته .

وأن محافظًا جديداً قد تم تعيينه ، على أن يتسلم عمله صباح اليوم التالى .

انطلقت الزغاريد فى كل مكان ، وتبادل الناس التهانى ، وقبل ميعاد نشرة الأخبار فى الخامسة والنصف ، كان السرادق مقامًا بجوار ضريح على الصياد ،وتجمع الشيوخ فى موكب إزدان بالأعلام والموسيقى ، وقارعى الدفوف ليلتف الجميع حول ضريح على الصياد ، وينطلق المولد برقصات مصابيح الإضاءة التى احتضنتها مياه النيل ، وملاءة أشعتها ، القوارب المرابضة ليسرى الدفء بقلبها .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٨٦٣٥ / ٢٠٠٠

